شجرة العواصف

تأليف

نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

شجرة العواصف

شجرة العواصف

جاءنى فى تلك الأمسية حزينا مهموما وهو الذى اعتاد فلسفة أمور الحياة مهما بلغت من السوء أبشع درجاته . قال وهو يتلع رشفة من فنجان القهوة السادة :

– الشيء الوحيد الذى يعزينى .. أننى كنت فى وداعها دون أى ترتيب مسبق لهذا !! كم كانت ستكون صدمتى لو أننى فوجئت برحيلها بلا وداع ؟ ! كأننى كنت على موعد مع القدر ؟ !

حاولت تشكيل ابتسامة على وجهى :

– إنك دخلت إلى موضوعك دون مقدمات وكأننى على معرفة سابقة به !!

وضع فنجان القهوة على المنضدة الصغيرة ونظر عبر الشرفة حيث اختفت صفحة النيل تحت غلالة كثيفة من الأتربة الناعمة . كانت الخماسين قد تسللت بالأتربة إلى العيون والأنوف والآذان وصبغت الأشجار والشوارع وواجهات البيوت والسيارات بدرجات تمزج الرمادى بالبنى . مسح جبهته بمنديله وقال :

– اعذرنى .. إنها قصة حب أخفيتها عن الجميع .. حتى عنك .. برغم إحساسى القوى بأنك ابنى البكر !!

– من حق كل إنسان أن يخفى أسرار حياته الخاصة عن أى إنسان مهما كان إعزازه له !

– لم اخفها لهذا العذر .. وإنما أخفيتها حتى لا يتهمنى أحد بالجنون ؟ ! وأنت أدرى بالطريقة التى يفكر بها الناس الآن !!

أعدت تشكيل الابتسامة على وجهى حتى أخفف من الجهامة التى حطت على وجهه وغلفت نبراته والتى لم أر مثيلا لها من قبل : قلت:

– لا بد أنه كان حبا رومانسيا من النوع المثالى .. على نمط قيس وليلى وروميو وجولييت ! والناس الآن لا يتقبلون بل ولا يصدقون وجود مثل هذا الحب الذى أصبح سخريتهم المفضلة !!

– إذاً ..كنت على حق ! لأن حبى هذا كان اكثر تطرفا من حب قيس وليلى وروميو وجولييت !!

فجر فى داخلى كل ينابيع الشوق والرغبة العارمة فى معرفة ما جرى لدرجة أن تعاطفى مع حزنه أوشك أن يترك مكانه لحب استطلاعى . قلت دون تردد :

– إذا كنت تنوى أن تقص علىّ القصة بأكملها فأرجوك لا تحرقنى بنار التشويق أكثر من هذا !!

تردد لدرجة التلعثم :

– ماذا يمكن أن أقول ؟ ! إنه شيء أغرب من الخيال !!

– لا أريد أن أستدرجك إلى ما لا تحب أن تفشيه من أسرار !

– لم أزرك اليوم لأستمع إلى نقدك لإحدى قصصى الجديدة كالمعتاد .. فقد جئت إليك كى أتخلص من هذه الشحنة التى تبهظ كاهلى !!

– وفيم الانتظار ؟ ! ربما أوحت إليك بفكرة .. لقصة جديدة مثيرة !

– النقاد والقراء .. كما تعرف .. يتهموننى بالإغراب والغموض وأحيانا بالجنون .. فما بالك لوكتبت ما سوف أقصه عليك الآن ؟ !

– اترك الحكم لى كناقد .. وأرجوك لا تتدخل فى تخصصى !

لم يتجاوب مع دعابتى فى محاولة لإثارة روح المرح . قال وهو يحاول إرخاء ساقيه المشدودتين :

– كل ما يهمنى الآن أن أقصها عليك ليس كقاص وروائى .. وإنما كعاشق ولهان .. فقد كانت قطعة عزيزة أثيرة من حياتى ووجودى !

بدا شاحبا ومنهكا على غير العادة . يبدو أن عينا قد أصابته أخيراً ! اعتاد كثير من الكتاب والنقاد والفنانين من أصدقائه القول بأنه محصن ضد الشيخوخة

والجسد فى آن واحد ! كان قد تخطى السبعين لكن روحه الشابة كانت أكثر توثباً من شباب الثلاثين . لم يكن يخاف الحسد لإيمانه بأن ما سيكون سيكون ولذلك كان فخوراً بكل نجاح يحققه سواء فى القصة القصيرة أو الرواية- أو التأليف السينمائى . ومع ذلك كان أبا للجميع ، سواء لنا نحن الذين فى سن أبنائه فعلا أو لزملائه فى الصحيفة التى يكتب فيها من الذين يناهزون الستين وما فوقها . لم يكن يتحرج من زيارة ناقد أو أديب من جيل أبنائه ، من حين لآخر ، فى حين يصر من هم فى سنه على انتقال الشباب لزيارتهم فى بيوتهم . فالصغير هو الذى يجب أن يذهب إلى الكبير . ولذلك كان قريبا من قلوبنا جميعاً .

لم تكن زيارته مفاجأة لى ، وإن كانت المفاجأة هى حالته النفسية التى لم أعهد مثلها من قبل ، وهو الذى كان لنا منبعا متدفقاً ومتجددا من البشر والتفاؤل وعشق الحياة .

لم يفلح صمتى فى دفعه إلى الاسترسال فى التنفيس عن مرجل البخار الذى يمور داخله إذ لزم الصمت هو أيضا ، وهو لا يزال يتأمل الغلالة الترابية التى تغلف النيل والأشجار والأشياء بلون رمادى بنى كئيب . أخرج منديله الأبيض ليمسح جبينه بأصابع تميل إلى الارتعاش وتركت بصماتها الداكنة عليه . تأكدت أن الموضوع ليس بالبساطة التى تصورتها فى البداية .

ساورنى قلق غامض فسألته بابتسامة باهتة :

– لقد تحول الشوق داخلى لسماع القصة إلى قلق ممض .. إذا كنت ابنك فعلا كما تشرفنى دائما بهذه البنوة .. فأرجوك .. فأنا لا أحتمل ما يمكن أن يعكر عليك صفو حياتك .

خرجت نبراته خافتة وهو يعيد المنديل إلى جيبه :

– صحيح أننى لم أنجب ولم أتزوج .. لكن أبنائى يملأون كل منابع الثقافة والأدب فى مصر والعالم العربى .. وأنت بالذات تعلم أنك بمثابة ابنى البكر وإلا لما أتيت إليك بخصوص هذا الموضوع الملتهب !!

– إذاً .. ليس هناك أى حرج .. خاصة إذا كان فى إمكانى أن أرد ولو بعض النزر اليسير من أفضالك علىّ ..

– أستغفر الله .. إنها قصة حب عمرها أكثر من نصف قرن . بدأت منذ كنت طالباً فى السنة الأولى فى كلية الحقوق عندما كانت جامعة القاهرة اسمها جامعة فؤاد الأول !

– يبدو أنها ملحمة وليست مجرد قصة ؟ !

أشعل سيجارة ونفث سحابة من الدخان الأبيض وقد عاد البريق إلى عينيه الخابيتين :

– كنا فى ذلك الوقت نشتعل حماساً ضد الإنجليز الجاثمين على قلوبنا كالكابوس .. لكن البوليس النظامى والسياسى كان لنا بالمرصاد .. وإن كان يتغاضى عن القبض علينا فى كثير من الأحيان .. لكن مظاهرة ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ كانت من أخطر المظاهرات التى راح ضحيتها عدد ليس بالقليل من طلبة الجامعة .. ومهدت لقيام الجبهة الوطنية وعقد معاهدة ١٩٣٦ .

– لابد أنك شاركت فى هذه المظاهرة ؟ !

– كنت أناهز السابعة عشرة من عمرى .. ولولاها لأصابتنى رصاصة أو رصاصتان على الأقل من رصاص الإنجليز الطائش أو المقصود !!

– كيف أنقذتك وهى فتاة رقيقة جميلة ؟ ! هل يمكن لفتاة فى رقتها وجمالها أن تشارك فى مظاهرة دموية ؟ !

ابتسم لأول مرة . فهو خير من يدرك ألاعيبى فى استدراجه للكلام . سحب نفسا عميقا من سيجارته لكنه سعل بشدة على غير عادته فغطت الحمرة الباهتة بياض عينيه . ومع ذلك أطلق الدخان صافيا وهو يقول :

– نعم .. اشتركت فى المظاهرة .. وكانت أشد رسوخاً من أقوى الرجال وأعتاهم !

– لا بد أنها كانت من تلميذات هدى شعراوى .. فلا تقف فتاة مثل هذا الموقف إلا إذا كانت من السائرات على درب هذه الرائدة العظيمة !

– كانت سائرة على درب الطبيعة العظيمة التى أبدعتها يد الفنان الأعظم !

ها هو يعود إلى الألغاز مرة أخرى ، لكن أمواج الشوق والإثارة غمرت الغرفة فنسينا الغلالة الترابية خارج الشرفة . قلت :

– هل كانت من أنصار العودة إلى الطبيعة ؟ ! خاصة وأن هذه الصيحة كانت مدوية فى أوروبا فى تلك الفترة ؟ ! كانت الرومانسية هى النغمة المفضلة !

استطرد كأننى لم اقل شيئاً :

– خرجنا فى مظاهرة عارمة فى ذلك الوقت من أبواب الجامعة .. حاول البوليس أن يساير الموقف دون لجوء للعنف .. فسار إلى جوارنا محاولا تفريقنا بالحسنى .. تدفق الموكب الهادر صوب حديقة الأورمان ليخترق شارع الدقى الذى خلا تماما من السيارات التى اختفت خشية التحطيم .. عموما كانت السيارات الخاصة قليلة جداً فى تلك الأيام .. بين كل سيارة وسيارة حوالى عشر دقائق .. المهم أن الفيلات المتناثرة بين حدائقها فتحت النوافذ لتمتزج زغاريد السيدات بالهتافات المدوية : « يسقط الاستعمار .. » « نموت ويحيا الوطن » .. « تحيا مصر حرة مستقلة » .. بل إن بعض الصبية تسلقوا أشجار الكافور واللبخ الممتدة على جانبى الجزيرة الخضراء بطول الشارع وساهموا فى الهتاف والتلويح بأذرعهم فى حماس ملتهب فى حين أسرع بعض أصحاب المحال لغلق محالهم والوقوف على الرصيف للفرجة أو الاشتراك فى الهتاف أو الانضمام إلى المظاهرة .

صمت ليلتقط أنفاسه المبهورة ومعها نفس عميق من سيجارته أطلقه فى ارتياح لأول مرة منذ مجيئه لزيارتى . استمرأت مشاكسته :

– لكننى حتى الآن لم أشم أية رائحة أنثوية توحى بالرقة والجمال !! هل يعقل أن تشارك فتاة جميلة رقيقة فى مثل هذا الموقف المتفجر باسوأ العواقب ؟ !

أخرج منديله ليمسح شعر رأسه الناحل وهو يتجاهل مشاكستى تماما :

– كان جو نوفمبر يميل إلى البرودة .. ومع ذلك كان العرق يتصبب تحت الطرابيش التى تألقت بلونها الأحمر على الرءوس !!

ضحكت وأنا أسترخى فى مقعدى :

– ها قد عاد الروائى إلى قمة مجده .. صورة درامية رائعة .. لكن أين البطلة وسط كل هذا ؟ !

– لا تتعجل الأمور .. فالبطلة لا تزال فى انتظارنا !

– هل كانت واقفة بإحدى الشرفات وهبطت لتشاركك فى المظاهرة ؟ !

تدفقت كلماته وجلجلت نبراته وسط وميض عينيه الحاد :

– كانت فى انتظارى على طوار حديقة قصر النيل !

– لابد أنه كان لقاء قمة فى الرومانسية : الحب والوطنية والتعرض للأخطار !!

أطفأ عقب سيجارته فى المطفأة البلورية وقد انسحبت الرعشة من أصابعه . نظر إلى بعينين أعادتا إلى ذاكرتى دعاباته الحلوة فى تخابثها وكأنه يقول لى :

– ماذا تريد أن تقول بالضبط ؟ !

وبالفعل واصلت مشاكسته بالتخابث الذى تعلمته على يديه :

– يقولون إن الحب فى أيامكم كان ملتهباً مثل حمم البراكين ؟ ! لم تكن الحلول الوسط تعرف طريقها إليكم خصوصا فى أمور الغرام !!

عاد إلى روعته المعهودة :

– وخصوصا فى حالة قاص وأديب زاده الخيال والإحساس !

سعدت بتجاوبه المتصاعد فتوقفت عن مقاطعته حتى لا أعوق تدفقه وهو يقول :

– واصلنا السير مع الهتاف الهادر وضباط البوليس يحاولون التفاهم مع المرفوعين على الأعناق من طلبة السنوات النهائية .. لعلهم يتفرقون إذ أنهم كانوا على مشارف الكوبرى الأعمى .. قصدى كوبرى بديعة الذى أصبح بعد ذلك كوبرى الجلاء .. حتى الراقصات اللاتى كن يتدربن على فقراتهن الراقصة فى كازينو بديعة جعلن الفرقة الموسيقية تعزف : « بلادى .. بلادى » لسيد

درويش .. فتحول الهتاف إلى النشيد الهادر الذى شارك فيه الجميع بلا مايسترو وبلا نشاز .

صمت ليبتلع لعابه وكأنه عاد شاباً لا يزيد على العشرين فلزمت الصمت بدورى حتى قال :

– سمعنا طلقات رصاص تدوى فى الجزيرة ويتردد صداها بين مبانى المعرض الزراعى الصناعى وخمائل حديقة قصر النيل .. وتناثرت الشائعات اللاهثة تؤكد أن العسكر ذوى الوجوه الحمر غادروا قشلاق قصر النيل وعبروا الكوبرى صوب الجزيرة بعد أن صدرت إليهم الأوامر من المندوب السامى البريطانى لورد كيلرن شخصياً بالتصدى للمظاهرة بأعنف أنواع الإرهاب مهما سقط من ضحايا . كانت عقدة ثورة ١٩١٩ ماثلة فى أذهان الإنجليز الذين تفننوا فى قمع المظاهرات خوفاً من تحولها إلى ثورة مماثلة !!

صمت ليلتقط أنفاسه ويخرج سيجارة من العلبة أمامه لكنه أمسك بها دون أن يشعلها واستأنف تدفقه وأنا أكاد أكتم أنفاسى حتى لا تفوتنى كلمة أو لمحة :

– لكن هدير النشيد ودقات القلوب وحبات العرق تحت الطرابيش وعلى الجباه جعل طلقات الرصاص التى أطلقت للتخويف مجرد بمب يلهو به الأطفال فى العيد .. وزحفت المظاهرة لتعبر كوبرى بديعة الذى سدت نهايته بعض العربات المصفحة التى صوبت مدافعها إلى صدور الطلبة .. وتناثرت حولها الوجوه الحمر فى الملابس الكاكى وقد لامست الأصابع الزناد .. ومع ذلك واصل الطلبة زحفهم مخترقين الحصار ومتسربين بين العربات .. ثم تطور الأمر إلى التشابك بالأيدى والضرب بالدبشك والطعن بالسونكى وسط الصراخ والصياح والهتاف بحياة مصر .. وسرعان ما دوى الرصاص تعقبه الصرخات .. لم تكن طلقات فى الهواء للتخويف .. وإنما فى الصدور للاستشهاد .. قفز البعض من فوق سور الكوبرى .. وتناثرت الطرابيش فى الهواء .. وسقط البعض الآخر مضرجاً بدمائه وهو يمسك بمكان الإصابة ويتلوى من الألم ..

سكن للحظات يستعيد فيها انتظام دقات قلبه فوجدت لسانى ينطلق دون أن أمسك لجامه :

– وأين كنت وسط هذا الجحيم ؟ !

– لا أدرى على وجه التحديد أين كنت ؟ ! كنت كمن يرزح تحت وطأة كابوس لا يمكن الاستيقاظ منه .. ويبدو أننى كنت أجرى هنا وهناك لا ألوى على شيء .. لم أكن خائفاً إذ اجتاحتنى مشاعر وعواطف لم أتعرف على حقيقتها .. يبدو أنها هاجمتنى من عالم مجهول تماما مثل طلقات الرصاص المنهمرة حولنا .. لم أدر بنفسى إلا وأنا أخترق الفجوات المفتوحة بين العربات المصفحة صوب السور الحديدى لحديقة قصر النيل وأحتضن جذع شجرة محتميا به .. وطلقات الرصاص بعضها يئز بصفير مخيف فى الهواء والبعض الآخر يصاب بكتمة مفاجئة وكأنه غرس غرسا فى جذع الشجرة ! لا أدرى كم بقيت على هذا الوضع ؟ ! ظللت محتضناً الجذع وقلبى يبتهل بصلاة خاشعة صامتة كى يخرجنى الله سالماً من هذا الجحيم . فلم أحتمل صورة أبى وأمى الملطخة بالدموع والنحيب وقد جحظت نظراتهما المتمسحة بابنهما الذى عاد إليهما جثة هامدة !

فجأة فتحت عينى على ضحكات جندى إنجليزى وسط سكون لف كل الأشياء وهو يقول بإنجليزية سوقية :

– روح بيتكم يا شاطر !! الحفلة انتهت !

كانت المنطقة قد خلت من البشر وساد صمت رهيب كأننى انتقلت إلى كوكب آخر مهجور .. تكررت كلمات الجندى الضاحكة فأدركت أنه يكلمنى أنا والمدفع الرشاش يتراقص فى يمناه .. لم أفكر ولم أرد وإنما أطلقت ساقى للريح . لا أعرف من أين حصلت على هذه السرعة والقوة برغم اليوم العصيب ؟ ! كانت آثار الدماء لا تزال تلطخ الكوبرى والشارع لكن قدمى لم تلمسا الأرض .. كدت أطير خوفاً من رؤية جثث الشهداء لكن يبدو أنها حُملت . بلغت البيت فوجدت أبى عند مدخل الباب قادما من جولة بحثاً عنى فى الشوارع وعند الزملاء فى حين كانت أمى متشبثة بسور الشرفة . لم أدر إلا وأنا فى أحضانهما ولسانهما يلهج وسط الدموع المنهمرة بلا حساب :الحمد لله .. ألف حمد وألف شكرٍ لك يا رب !!

لم أملك أن أخمد حاستى النقدية فتساءلت :

– لكن أين هى من هذا كله ؟ ! وضعتنى على أحر من جمر فى انتظار ظهور البطلة .. لكننى لم أرها أو أسمع عنها حتى الآن !!

تحاشى نظراتى المسددة إليه وكأنه تذكر شيئاً :

– على فكرة .. كثيراً ما ردد جمال عبد الناصر فى خطبه ولقاءاته فخره باشتراكه فى مظاهرات ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ .. وإصابته فى ميدان المنشية بالإسكندرية برصاصة فى جبينه .. لكن ربنا ستر وكانت الإصابة سطحية !!

لم أسمح له بالمراوغة أكثرمن ذلك :

– لكنك لم تجب عن سؤالى !! أين البطلة ؟ ! البطلة التى كنت فى وداعها صباح اليوم دون أى ترتيب مسبق لهذا ؟ ! وكأنك كنت على موعد مع القدر ؟ !

– كثيراً ما يسيء النقاد فهم الأدباء والفنانين !!

– لم يرد على لسانك أى ذكر لجنس الحريم ؟ !

لاحظ رنة التهكم فى نبراتى ومع ذلك قال ببساطة :

– ألم أقل لك ؟ ! سيتهمنى الناس والنقاد وأنت أولهم بالجنون !!

– لن يتهمك أحد بأى شيء .. لأن ما ذكرته عبارة عن مظاهرة من المظاهرات التى كانت تصطخب بها مصر أيام الاحتلال البريطانى !!

– ألم تلمح طيف البطلة ؟ !

تصاعدت رنة التهكم برغم أنفى :

– لعلها كانت متوارية خلف خصاص إحدى النوافذ أثناء المظاهرة !!

– ألم أقل لك إنها كانت فى انتظارى على رصيف حديقة قصر النيل ؟ !

– لكنك لم تقابل أحداً !

– ألم أقل لك إنه لولاها لأصابتنى رصاصة أو رصاصتان عى الأقل من رصاص الإنجليز الطائش أو المقصود ؟ !

– لا أنكر هذا .. لكننى لا أفهم شيئاً !

– ألم أقل لك إنها اشتركت فى المظاهرة وكانت أشد رسوخاً من أقوى الرجال وأعتاهم ؟ !

– ما تقوله ليس ملحمة أو حتى قصة حب .. وإنما لغز أو طلسم لا يدخل فى نطاق مهمة الناقد !

أشاح بوجهه بعيداً :

– كانت كل ظنونى فى محلها .. ومع ذلك لن أخفى عليك ما جئت اليوم من أجله ..

ثم انطلقت كلماته كمن يلقى أحمالا أحنت ظهره :

– البطلة هى الشجرة التى احتضنت جذعها وتلقت الرصاص نيابة عنى !

لم يدهش لنظراتى المحملقة الجاحظة ولسانى الهامس بتساؤل مبحوح :

– الشجرة ؟ !

– نعم .. الشجرة !!

– هل عشت قصة حب مع شجرة ؟ !

– اتهمنى بما تشاء !! لكن هذا ما حدث لمدة تزيد على نصف قرن !

ومضت كل تفاصيل قصته فى لحظة من التفكير الخاطف فقلت :

– ما أسمعه .. لم أسمع مثله من قبل .. بل ولن أسمع مثله بعد ذلك .. صحيح أن مظاهر الطبيعة كانت زاداً متجدداً للشعراء والأدباء .. لكن أن يقع أديب فى غرام شجرة بعينها .. فهذا هو الجديد بمعنى الكلمة !

– تقصد أن هذا هو الجنون بعينه ؟ !

– أبداً .. لعله كان عرفانا بالجميل لأنها حمت حياتك !

– دعك من المناقشة والتحليل الآن .. فربما كونت نظرة أشمل بعد استماعك للقصة كلها !

– يبدو أننى سأستمع إلى القصة التى كان تشيكوف يتمنى كتابتها !

بدت معالم الارتياح على وجهه .أزال تعليقى كل حرج ، خاصة وأنا أعلم مدى عشقه لتشيكوف وتأثره به . استرسل كمن يسرد حلما :

– منذ ذلك اليوم البعيد اعتدت أن أزور حبيبتي من حين لآخر .. كانت أول زيارة بعد المظاهرة بأيام معدودة .. شيء داخلى ألح علىّ بالذهاب .. وهناك وجدت آثار الرصاص محفورة فى جسدها الممشوق الجميل .. ثلاثة ثقوب يحمل أحدها آثار احتراق .. لكنها لم تكن ثقوباً غائرة مما يدل على صلابتها ورسوخها كالطود الشامخ .. مسحت الشارع بعينى فلم أجد أحداً من المارة .. انهلت على الثقوب تقبيلا فشعرت بها تطيل فروعها التى بدت مزدهرة بالخضرة اليانعة برغم أواخر الخريف وبوادر الشتاء .. كانت العصافير بين الأفنان تغرد بأهازيج ما قبل النوم .. نظرت إلى أعلى فوجدتها تحتضن أكثر من عش .. تمنيت أن أصبح عصفوراً لأسكن أعشاشها طول العمر ..

أشعل السيجارة التى نسيها بين أصبعيه فأزحت حرج الصمت بتعليق مشجع على المواصلة :

– لقد انتقلنا من القصة إلى الشعر !

أطلق نفساً طويلاً وقد سرح بنظراته عبر الشرفة التى شرعت فى التسربل برداء المساء :

– قررت أن اعرف كل شيء عن تاريخ هذه الشجرة .. فإنه يتحتم على العشاق أن يعرفوا كل شيء عن أحبابهم .. كان لنا جار يعمل مهندساً فى بلدية القاهرة .. قال لى إن مجموعة الأشجار المزروعة فى الشارع الذى يربط الكوبرى الأعمى بكوبرى قصر النيل .. والتى تظلل ميدان الإسماعيلية .. الذى هو ميدان التحرير الآن .. وميدان الأوبرا وباب الحديد .. هذه المجموعة انتقاها الخديو إسماعيل من مشتل سراى عابدين .. إذ كان مغرماً بأشجار الكافور واللبخ والأكاسيا والفيكاس .. كى يزين بها هذه المناطق .. وهى أشجار اشتهرت بالعمر الطويل والفروع السامقة والظلال الوارفة ..

– لابد أن هذا كان ضمن حملته لتجميل القاهرة استعداداً لافتتاح قناة السويس !!

– فعلا .. احتلت هذه الأشجار مواقعها لتصل إلى عنفوان ازدهارها عام ١٨٦٩ !

– لا شك أن ما قمت به كان دراسة ممتعة ؟ !

– واصلت هذه الدراسة بل وعشتها لدرجة أن الشجرة نفسها كانت تقص عليّ تفاصيلها بنفسها عندما أخلو إليها فى بعض أمسيات الصيف والقمر يداعب بأنامله الفضية الحانية أوراقها وأفنانها .. ومن حين لآخر ينطلق صوت عصفور مقتضب يبدو أنه يحلم فى عشه .. أو ساعات العصر فى أيام الشتاء وقد امتزجت بخيوط الشمس الذهبية الدافئة قبل غروبها .. كانت تتكلم مع هبات النسيم العليل أو الريح الحانية أو حتى المتربة بنبرات لم يعتد البشر سماعها وإن كان من السهل تفسيرها . قالت لى فى الأيام الخوالى :

-- أنت لم تشهد أيام شبابى الباكر .. كانت أيام كالحلم .. الشوارع الفسيحة الناعسة بين أحضان الشجر .. العربات المذهبة التى تجرها الخيول المطهمة .. الورود التى تشع بأريجها فى الطرقات وأسفل الكبارى .. والخديو إسماعيل هذا الذى اتهم بأنه سبب كل كوارث مصر .. صندوق الدين وإفلاس الخزانة المصرية .. كان عاشقا للجمال والحرية .. يكفيه فخراً أن بريطانيا لم تكن ترتاح له وظلت تضغط على السلطان عبد الحميد حتى عزله فى يونيو ١٨٧٩ .. كانت تخطط منذ ذلك الحين لاحتلال مصر !!

صمت ليطفىء السيجارة التى أوشكت على إحراق أصابعه . لم اقطع حبال الصمت . كنت أمر معه بلحظات عجيبة انطلقنا فيها إلى آفاق لم نرتدها من قبل . نسى هو بدوره مسألة اتهامه بالجنون فتلاشت الحساسية تماما وبريق عينيه يكاد يخترق حجب الظلام المتكاثفة خارج الشرفة لعله يلتقط شجرته الحبيبة . قال أو قالت :

– كان العشاق الأجانب يتعانقون تحت فروعى وأوراقى ثم ينطلقون كبلابل صادحة بألحان فيردى الشهيرة .. فى حين كان يتناجى العشاق المصريون بدندنات من أغانى ألمظ وعبده الحامولى .. حتى السكارى كانوا يتمسحون بجذعى .. وبعضهم يظل ممسكا به حتى يستعيد بعضاً من توازنه ثم يستأنف

سيره .. كان الشارع نفحات من عطور ودفقات من أنغام .. أما يوم افتتاح الأوبرا فحدث عنه ولا تكف لدرجة أننى حسدت زميلاتى اللاتى رابطن على جانبى الطرق التى اخترقتها مواكب الجمال والسحر والأناقة .. وفى مقدمتها موكب الإمبراطورة أوجينى وهى فى طريقها إلى الحفل الملكى الراقص فى قصر لطف الله الذى لا يزال قابعا فى ثوبه الجديد بين جناحى فندق ماريوت على نيل الزمالك .. كانت جميلات العالم وشهيراته يصلن بعرباتهن الذهبية ليهبطن على يد الخديو المرحبة بهن فى أرض الحضارة .. لكن دوام الحال من المحال .. عزل إسماعيل وذهب إلى إيطاليا ليحل محله ابنه توفيق الذى احتلت مصر فى عهده وأصبح تابعاً ذليلا لكل أوامر بريطانيا ..

ابتلع لعابه الجاف فحاولت أن أقلل بقدر الإمكان من حالة التقمص التى استغرقته فقلت مداعبا :

– هذا شىء عادى وطبيعى جدا فى عالم الفن والأدب .. فكثيرا ما تكلمت الحيوانات والأشجار والطيور والنباتات فى الأساطير والملاحم والقصص ..

ابتسم ابتسامة عابرة وأشعل سيجارة جديدة وهو يحاول كبت سعال هز أركان صدره :

– وتوالى الربيع والصيف والخريف والشتاء على شجرتى الحبيبة ومعها الأيام !

– وماذا عن ثقوب الرصاص فى جذعها ؟ !

– لا أعرف إذا كانت قد اندملت .. أم أن الأتربة والأمطار قد سدتها ؟ ! المهم أنها اختفت من جذعها .. لكن ذكراها ظلت محفورة فى قلبى .. كنت أحيانا أخرج من بيتنا فى الدقى عندما تشتد وطأة الحر فى ليالى الصيف كى أتنسم الهواء على ضفاف النيل .. أمر بجدران كازينو بديعة وأسواره التى لا تحجب أصوات الغناء ودقات الرقص وصخب السكارى .. ثم أعبر كوبرى بديعة لألقى تحية المساء على شجرتى الحبيبة .. وكم كان الدم يغلى فى عروقى إذا رأيت جنديا بريطانيا فى صحبة إحدى بنات الليل وقد التصقا بجذعها ! لم أكن أجرؤ على الاقتراب منهما .. كنت قد تخرجت وعملت بالصحافة

لكن حادثة نوفمبر ١٩٣٥ لم تغب عن ذاكرتى .. وعلى قدر ما أتذكر فإن حبيبتى كانت قد روت لى شيئاً عن دورها فى ثورة ١٩١٩ .. إذ يبدو أنها تلقت بعض رصاصات الإنجليز لتفدى بعض المتظاهرين المشتركين فى الثورة ..

سمع دقات على الباب فصمت فى بعض من الحرج . فتح الباب ودخلت زوجتى بصينية عليها فنجانان من الشاى وبعض قطع الكيك . ألقت تحية المساء على الضيف الكبير لكنه لم يداعبها كالعادة بل رد التحية فى اقتضاب . نظرت الىّ فى تساؤل لكننى أشحت بوجهى صوب الشرفة . كانت نظراتها تبحث عن تعليقاته المرحة : إذا كنت تخافين على زوجك فأقنعيه بالتوقف عن مهاجمة الأدباء بهذا العنف ؟ ! الزوجة التى لا تكبح جماح زوجها تسعى فى الواقع للخلاص منه دون أية مسئولية على عاتقها !! أمس وجدت اثنين من الأدباء الشبان متربصين بزوجك فى الظلام فى انتظار عودته إلى المنزل !

لم تلتقط زوجتى مثل هذه الدعابات المعتادة فأسرعت بالخروج فى حين مددت يدى بفنجان الشاى فأمسك به واستطرد دون رشفة ودون حرج على الإطلاق :

– كانت أستاذتى التى تعلمت على يديها كل قيم الخير والحب والجمال .. تعلمت العطاء بلا انتظار مقابل .. كما تعطى هى الثمر والظل والنسيم العليل . تعلمت الانتماء بحيث أمد جذورى فى تربة مصر لتغوص وتتشعب فيها يوماً بعد يوم .. تعلمت الصمود للعواصف وهبات الرمال والأتربة .. لهجير الصيف عند الظهيرة حين تهوى الشمس بسياطها الملتهبة على ظهرى .. لصقيع الشتاء عند الفجر حين تبتل كل الأشياء برعشة سارية فى العظام .. للعطش حين تتوقف الأمطار وتتراجع المياه فى جوف الأرض .. للاختناق حين يعم التلوث تحت وطأة عادم السيارات والآلات .. للجوع حين تضن الأرض بعصاراتها فى مواسم الجفاف والتحاريق .. تعلمت منها أن الشجرة المثمرة أو التى تحتضن العصافير والحمام واليمام هى التى تتعرض لقذائف الرصاص أو الطوب أو الحجر من الطامعين أو الحاقدين أو المخربين .. ولذلك كلما كانت الحياة تقسو أو أتعثر فى مسالكها الوعرة أو دروبها المسدودة .. كنت أسرع إليها أتامل همساتها

ونصائحها .. وأخرج من جلستي قبالتها أوتحتها وقد زودتني بشحنة جديدة من التفاؤل والبشر والصمود والإصرار لأواصل شق طريقي في الحياة . يكفي الفجوةالعليا في جذعها حيث كانت تستضيف فيها يمامة جميلة سمراء اللون .. والتي كثيراً ما باضت ورقدت على البيض حتى فقس صغارها من قشرته .. ثم استمرارها على تربيتهم حتى تعلمهم الطيران . لم تكن فجوة بل كانت شرفة تطل على الكون بأكمله .

تذكر فنجان الشاي في يده فرشف منه رشفة ثم تساءل :

– هل سمعت عن تجربة مثل هذه من قبل ؟ !

– ما تقوله مادة رائعة لعمل أدبي فريد من نوعه !! لم أشعر بمتعة وإثارة وعمق وشمول مثلما أشعر الآن !! إنك تفتح لنا عالما مبهراً كان مجهولاً دائماً لنا برغم صلته الحميمة اليومية بنا !

رشف أكثر من نصف الفنجان دفعة واحدة ثم وضعه على المنضدة الصغيرة كي يترك كلماته ومشاعره وأفكاره تنهمر كالسيل الجارف :

– في يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استيقظت القاهرة لتجد الدبابات والعربات المصفحة تحتل كل المواقع الحيوية في العاصمة .. لاحظتها وأنا أعبر بسيارتي الصغيرة كوبرى بديعة ماراً بشجرتي الحبيبة التي بدت في أبهى حللها من الخضرة والازدهار .. لأول مرة في تاريخ مصر الحديث بدا منظر الدبابات والعربات المصفحة مبهجاً إلى درجة النشوة .. ذهبت إلى الجريدة لأعسكر فيها متتبعاً الأخبار والتطورات لحظة بلحظة حتى حلول يوم السبت حين تحقق الحلم الأكبر بخروج الملك فاروق مخلوعاً من مصر ونجاح ثورة الجيش التي كانت تسمى في ذلك الوقت حركة الجيش المباركة .. ذهبت مندوباً عن الجريدة لمتابعة الخروج التاريخي من قصر رأس التين بالإسكندرية ..كنت في عز الشباب .. في الرابعة والثلاثين من عمري .. نفس سن جمال عبد الناصر في ذلك الوقت .. فأنا أيضاً من مواليد يناير ١٩١٨ .. كانت القوات التي تقرر اشتراكها في عملية طرد فاروق قد أقامت حصاراً حول سراي رأس التين وسراي المنتزه .. مشاة وعربات مصفحة ومدفعية .. وعندما اقتربت الساعة

من السادسة مساء .. كنت أرى اللنشات وهى تتجه إلى اليخت المحروسة ثم تعود ثم تتجه إليها مرة ثانية .. وعلمت أنهم يحملونها بالمؤن وبمتاع الملك المخلوع استعدادا للرحيل .. وفى تمام الساعة السادسة رأيت علم فاروق فوق السارية أمام رأس التين وقد أنزل .. ثم رأيت فاروقا ومن حوله المودعين من نساء ورجال .. لم أميزهم جيداً وإن كنت عرفت فيما بعد أن على ماهر باشا والسفير الأمريكى وشقيقته الأميرة فوزية من بينهم .. ثم تحرك فاروق بجسمه الضخم ليستقل اللنش إلى المحروسة .. وقف عند مقدمة اللنش مرتديا حلة بحرية بيضاء .. وكانت اللنشات تروح وتجىء فى الميناء منذ الصباح حتى ساعة الرحيل .. تقترب من رأس التين ثم تدور حول المحروسة .. وكانت ناريمان وبنات فاروق قد وصلن إلى المحروسة قبل السادسة ..

لم أملك سوى أن أسأله بشغف :

– وأين كنت وسط هذا الموقف التاريخى ؟ !

– كنت فى لنش مع باقى الصحفيين المصريين الذين ذهبوا ليسجلوا بالصورة والكلمة ساعة رحيل فاروق عن مصر ..وما كاد فاروق يراهم وهم يقتربون منه حتى هاج وماج وسبهم بصوت عال .. فما كان من حرس خفر السواحل الذين كانوا فى لنش يسير بهم محاذيا للنش فاروق إلا أن أطلقوا النار للتخويف .. فما كان من قائد لنش الصحفيين سوى أن انطلق بنا بعيداً .. المهم وصل فاروق إلى المحروسة وصعد درجات السلم ثم وقف على الممر فوق ظهر اليخت وكأنه ينتظر وصول أحد .. وبعد فترة قصيرة جداً جاء لنش آخر يحمل محمد نجيب وجمال سالم وحسين الشافعى .. وكان من المفروض أن يقوموا بتوديعه من مرساة سراى راس التين قبل رحيله .. لكنهم تأخروا .. واقتربت الساعة من السادسة .. فاستقل فاروق اللنش على الفور طبقاً للإنذار الذى تلقاه .. صعد محمد نجيب وجمال سالم وحسين الشافعى إلى المحروسة لتوديعه .. وظلوا واقفين معه بعض الوقت ثم ما لبثوا أن غادروا المحروسة التى شرعت فى الرحيل .. فى حين بدأت مدافع الطراد « فاروق » تطلق واحداً وعشرين طلقة . كانت

المحروسة تنسحب إلى الخلف وهى تغادر البوغاز ثم تمضى مع غروب الشمس بقرصها الأحمر القانى عند خط التقاء السماء بالبحر .

انتهزت لحظات السكون وهو يشعل سيجارة جديدة مصحوبة ببعض السعال المتقطع :

– لا تؤاخذنى .. لكن ما علاقة خلع فاروق عن العرش ورحيله عن مصر .. بموضوع الشجرة ؟ !

– لا تندهش ولا تذهل إذا قلت لك إنها لم تغب عن بالى طوال ذلك اليوم التاريخى .. كانت زميلاتها وشقيقاتها من أشجار الكافور واللبخ والأكاسيا والفيكاس الشامخة فى حدائق سراى رأس التين تذكرنى بها وقد اكتست بخضرة ذهبية تمايلت مع هبات النسيم من البحر .. كذلك لا تنس أن حبيبتى قد شهدت معظم الثورات والانتفاضات والمظاهرات بل وفدت أبناءها الذين احتموا بها .. هذه الأم المعطاءة لابد أن فرحتها كانت فى عنان السماء بهذا الحدث التاريخى الذى توج كل كفاح أبنائها وجهادهم .. ولذلك عندما عدت إلى القاهرة بعد يومين .. سارعت إلى زيارتها فى المساء بعد إعداد الجريدة للطبع .. وهناك وجدتها فى أبهى حلة .. خلتها أطول بفروعها السامقة التى تخللتها خيوط القمر الفضية .. وانتشر فى الأنوف أريج الياسمين المتسلل من حديقة قصر النيل عبر سورها الحديدى .. وشمخ تاجها الأخضر الداكن ليلامس السحب الخفيفة المتهادية فى غلالة شفافة حول القمر .. ومن مسافة بعيدة صدح مذياع بأغنية أم كلثوم :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى

يبدو أنها كانت من مذياع أحد اللنشات القابعة أسفل كوبرى بديعة .. وكما رأى حافظ إبراهيم مصر وهى تتحدث عن نفسها .. رأيت أنا الشجرة وهى تتحدث عن مصر .. كانت لوحة مبهرة ..

تذكرت أن فنجان الشاى قد برد فعافته نفسى . كان كل همى الإنصات بكل جوارحى لهذه الملحمة التى لم تكن فى الحسبان . قلت دون تفكير :

– جعلتنى أموت شوقا لرؤية هذه الشجرة وزيارتها !

غشت وجهه مسحة الكآبة والجهامة التى جاء بها وانقشعت بانهماكه فى الحديث :

– هل نسيت ؟ ! ألم أقل لك إننى كنت فى وداعها هذا الصباح ؟ ؟ !

خرج صوتى هامساً فى إلحاح :

– كيف ؟ !

– لا تتعجل الأمور .. دعنى أفضى إليك بكل ما عندى فلا يعرف أحد ما أقوله سواك .. ومى أيضاً !

قاطعته لأول مرة دون قصد :

– ومن مى هذه ؟ !

ثم استدركت :

– إذا سمحت لى ؟ !

– عندك حق .. إذا كنت قد اعترفت بقصة الشجرة .. فلا باس من سرد قصة مى .. فالقصتان فرعان فى جذع واحد .. على الأقل قصة مى أكثر معقولية ويمكن أن تخفف من شطحات القصة الأخرى !

ثم ابتسم فى حنو عذب :

– إنها ليلة الاعتراف الأكبر .. كنت أفضل كتمان أسرار حياتى الخاصة .. لكننى أدركت صباح اليوم أن معانيها ودلالاتها ليست ملكى وحدى !!

– حياة الفنان والأديب لا يمكن أن تكون ملكه وحده .. فهو المنجم الذى يخرج منه للناس أنقى المعادن وأروع الجواهر !!

– كم أحببت تعبيراتك النقدية هذه ؟ ! المهم أن انتصارات الثورة توالت .. الجلاء وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ .. تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .. العدوان الثلاثى على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ .. والجلاء مرة أخرى مع فرنسا فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ ثم إسرائيل فى مارس ١٩٥٧ .. كنت أذهب فى بعض ليالى الإظلام التام أثناء العدوان لأتجول حول

لحديقة قصر النيل وأناجى حبيبتى التى أنبأنى شموخها بسرعة انحسار العدوان ..كانت فروعها تنطبع على صفحة السماء المظلمة وسط أعمدة النور المنبعثة من البطاريات الأرضية الباحثة عن طائرات العدو المغيرة .. والتى ذكرتنى بتلك التى كانت تخترق السماء فى الحرب العالمية الثانية بحثا عن الطائرات الألمانية والإيطالية .. أو فى حرب فلسطين بحثا عن الطائرات اليهودية .. أما فى هذه الحرب فكانت بحثا عن الطائرات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية .. كانت الحياة متجددة متدفقة برغم كل العقبات .. فى إحدى غارات العدوان الثلاثى لمحت عاشقين فى ضوء القمر يحفران اسميهما على جذع شجرتى داخل قلب مطعون بسهم .. كنت على وشك أن ألفت نظرهما إلى أن الحب لا يعنى جرح الجزع لكن الشجرة بدت سعيدة وفى نشوة تجلت فى رقصات أوراقها مع دفقات رياح ديسمبر !

خشيت أن تجرفه الأحداث التاريخية بعيداً عن مى فداعبته :

– قد تكون لدى فكرة واضحة عن هذه الأحداث لكننى لا أعلم شيئاً عن مى !!

– هذه الأحداث عندى تدور حول الشجرة !

أضفت مواصلا الدعابة المستفزة :

– وأعتقد أنها تدور حول مى أيضاً لأن القصتين فرعان فى جذع واحد !

عادت الابتسامة الحانية إلى وجهه فأضاءته :

– بدأت قصة مى فى عام ١٩٥٨ مع الوحدة مع سوريا .. كنت ضمن أول وفد صحفى ذهب إلى دمشق لتغطية أول زيارة لعبد الناصر بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية العربية المتحدة بإقليميها : الإقليم الجنوبى أو المصرى والإقليم الشمالى أو السورى .. وهناك قابلتها .. كانت تعمل مندوبة لجريدة « الوحدة العربية » .. كان حبا من أول نظرة برغم فارق السن بيننا .. كنت أناهز الأربعين فى حين لم تتخط هى الخامسة والعشرين .. لكنه كان الفارق الوحيد بيننا .. أما عقلها فكان فى قمة النضج والوعى .. وفكرها فى غاية التوقد والحماس .. ونظرتها فى منتهى الدقة والشمول .. أما شكلها فسبحان الخالق فيما أبدع ..

الوجه المرمرى المشرب بالحمرة فى استدارة كالقمر فى عنفوانه .. وتاج الشعر الذهبى الذى يتماوج بومضات الضوء والظل .. والعينان اللتان تمزجان العسل بالخضرة .. والغمازة التى تغوص فى ذقنها الدقيقة عندما تفتر الشفتان الصغيرتان المكتنزتان عن حمرة تفاح الشام .. حتى الآن أكاد أسمع همساتها على ضفاف بردى .. كانت كالحلم فى أيام الأمل والإشراق والمستقبل الباسم والطموح الذى لا يعرف حدوداً ..

استرخى بعض الشىء فمد ساقيه تحت المنضدة الصغيرة وأوشك على تسبيل عينيه كما لو كان فى حلم أو رؤيا :

– عندما حمل سكان حمص سيارة عبد الناصر على أكتافهم .. ذابت تحت ذراعى التى احتوتها وهى تصيح حتى أسمعها وسط هدير الهتاف : « إنهم يحملون الأمل ويمسكون بتلابيبه لعلهم يطيرون به إلى الآفاق التى حلم بها الآباء والأجداد .. » كانت شاعرة قلباً وقالباً .. هى نفسها كانت قصيدة شعر تسير على قدمين .. وتمت خطبتنا فى فبراير ١٩٥٩ فى دمشق حين اعتاد عبد الناصر قضاء شهرى فبراير ومارس من كل عام هناك .. كانت الساحة الواقعة أمام قصر الضيافة مهرجاناً لا ينتهى طوال النهار والليل .. أهازيج ..أناشيد .. هتافات لعبد الناصر والوحدة العربية والكماشة التى تحيط بإسرائيل التى وقعت بين فكيها : الشمالى والجنوبى .. فكان عبد الناصر يخرج كل نصف ساعة أو أقل لإلقاء خطبة مقتضبة للجماهير المتعطشة لرؤية وميض عينيه النافذ إلى القلوب وسماع رنين صوته المدوى بالثقة والقوة والتحدى .. كنا نلتقى أنا وهى ما بين القاهرة ودمشق .. ما بين الإسكندرية وحلب .. ما بين أسوان واللاذقية .. كانت تذلل لى كل العقبات فى سوريا .. إذ أن أمها كانت من عائلة المواطن العربى الأول شكرى القوتلى وآخر رئيس للجمهورية السورية قبل الوحدة .. وكنت قد قررت أن نتزوج فى فبراير ١٩٦٠ .. وبعد فراق دام شهرين فى رحلات صحفية .. وجدتها كالزهرة الجميلة الذابلة ..

توقف ليبل شفتيه بلسانه وهو ينطق ببريق عينيه ودقات قلبه :

– طبعا .. لابد أنك تتساءل .. وما علاقة كل هذا بعزيزة ؟ !

لم أملك سوى أن أترك قدمى تغوصان فى بحيرات الشوق :

– ومن هى عزيزة هذه ؟ ! إذا سمحت لى !

– عزيزة هو الاسم الذى أطلقته مى على الشجرة .. كانت مى هى الإنسان الوحيد الذى لم أشعر معه بأى حرج فى أن أقص عليه حكاية الشجرة .. كنت أظن أنها ستأخذ الموضوع على أنه مجرد فكاهة أو طرافة .. لكن يبدو أن روح الشاعرة داخلها جعلتها ترى فيها أبعاداً وأعماقا لم تفصح عنها .. كانت تطلب نى زيارتها كلما جاءت إلى القاهرة .. هناك تحت ظلالها الوارفة فى هجير صيف أو تحت أصابع الدفء المتسللة من الشمس بين فروعها وأوراقها فى مقيع الشتاء قضينا لحظات مشبعة بالأحلام الوردية ومضمخة بالعطور الندية .. ں إننى فى انطلاقة طيش عبرت عن رغبتى فى حفر اسمينا على جذعها .. قالت بصوتها الهامس المبحوح ذى اللكنة المحببة : « لقد حفرنا اسمينا بين السحب فلا تجرحها .. حبنا لا يحتاج إلى إثبات أو تأكيد .. إنه من حقائق العصر .. كالوحدة بين مصر وسوريا .. » وذات مرة داعبتنى بإحضار شريط حريرى أحمر لفته حول الشجرة فى عيد ميلادها الذى حددت تاريخه بافتتاح قناة السويس .. كنا روحا واحدة تقمصت جسدين ..

صمت ليقاوم سحابة حزن غطت وجهه فاجتاحنى إحساس الربان عندما تهاجمه ريح لا يشتهيها . احترمت صمته حتى قال :

– قلت لك .. وجدتها زهرة جميلة ذابلة .. كانت تحاول أن تخفى عنى شيئاً .. لكن مع الإلحاح والرجاء .. تركت الخبر ينهال على رأسى كمطرقة من حديد بعثرت أشلاء مخى .. أخبرتنى بأن المرض اللعين قد أصابها .. وقد بدأت العقاقير وجلسات الإشعاع تنهكها ولا تنهك العدو الكريه .. لم أعرف هل أبكى ؟ ! هل أصرخ ؟ ! هل أحتضنها ؟ ! هل أنطح الحائط برأسى ؟ ! هل أقتلها ثم أقتل نفسى هربا من وطأة الكابوس ؟ ! هل أقرص نفسى لعلى أستيقظ وأتنفس الصعداء ؟ ! انطفأ الوهج وهبطت على الكون غلالة سوداء حاولت أن أمزقها بقرار لم أفكر فيه .. قررت أن نتزوج فوراً .. لكنها لم ترحمنى .. قالت لى إنها تريد أن تتركنى عاشقاً وليس أرملاً .. ومضت الأيام ..

لا أعرف إذا كانت ثقيلة كالرصاص .. أم سريعة كالطيور المهاجرة ؟ ! رحلت فى أغسطس ١٩٦١ .. وكانت سلوتى الوحيدة زيارة قبرها .. لكن حتى هذه السلوى سرعان ما حرمت منها إذ وقع الانفصال فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ .. وعدت من هناك مطروداً على طائرة المشير عبد الحكيم عامر .. بلا عودة .. مثل رحيلها هى تماماً !

عاد إلى صمته ليشعل سيجارة بأصابع تقاوم الارتعاش . لم أجد كلمات أملأ بها الفراغ الموحش حتى قال :

– أصبحت صلتى بعزيزة .. صلة دنيا بأكملها .. لم تعد مجرد شجرة للذكريات .. بعد مى مررت بعلاقات عابرة لم ترق إلى مستوى الدنيا التى تلاشت .. فلم يبق لى سوى عملى وفنى .. أغرقت فيهما أحزانى الشخصية والقومية التى بلغت قمتها فى يونيو ١٩٦٧ .. فى يوم الجمعة ٩ يونيو بعد إعلان عبد الناصر لتنحيه .. لم أجد ملجأ لى سوى عزيزة .. كانت الطرقات متربة والشوارع مظلمة .. قصف مدافع وكرات حمراء تطير فى سماء القاهرة .. والقمامة متناثرة هنا وهناك .. ذهبت إليها وموجة من الضياع تغرق الكون كله .. كانت هناك بعض العربات المصفحة عند بدايات كوبرى الجلاء ونهاياته .. فى نفس الأمكنة التى رابطت فيها المصفحات البريطانية يوم ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ .. والمصفحات المصرية يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وشهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٥٦ .. تلكأت على الطوار حتى بلغت حبيبتى التى بدت داكنة .. ساكنة .. كأنها لوحة من الطبيعة الصامتة .. لم تهب نسمة هواء واحدة لتداعب أوراقها وتفك عقدة لسانها .. كأن الزمن توقف عند تلك اللحظة أو كأن الكون أفرغ من محتواه !

– ماذا تفعل هنا يا سيد ؟ ! ممنوع الوقوف هكذا !

انتزعنى من تأملاتى صوت أجش سوقى .. نظرت إلى مصدره فوجدته أحد رجال الدفاع المدنى وكأنه يريد أن يمارس متعة إصدار أوامره بعد انفضاض المولد الذى بدأ منذ الاثنين الأسود . ومع ذلك سألته دون تفكير :

– لماذا ؟ !

طفحت على نبراته مخايل الأهمية :

– منطقة عسكرية .. الحديقة مليئة بالمدافع والمصفحات ونصف المجنزرات .. واضح كلامى ؟ !

– واضح ..

قلتها ونظراتى إلى حبيبتى كلها أسف وأسى واعتذار عن الزمن الذى جعل لقائى بها ممنوعا بل ومستحيلا . سرت لا ألوى على شىء حتى عبرت كوبرى قصر النيل . أخذ السكون فى الانقشاع مع ضجيج مظاهرات من شوارع خلفية تطالب عبد الناصر بالبقاء وإكمال المشوار !

تساقط رماد السيجارة على السجادة فنظر إلىّ معتذراً ثم دسها فى المنفضة حتى أطفأها وهو يواصل حديثه وكأنه يصف مشاهد تتوالى على شاشة مخيلته :

– مرت الأيام .. وبدأنا حرب الاستنزاف ..لكن يبدو أن الصدمة كانت قد استنزفت عبد الناصر الذى تكالبت عليه أمراض السكر والقلب وتصلب الشرايين .. ثم جاء أيلول الأسود الذى ذبح فيه أكثر من عشرين ألف فلسطينى فى الأردن .. وبرغم كل شىء أسرع عبد الناصر لعقد مؤتمر القمة فى القاهرة لوقف نزيف الدماء .. لكن نزيف صحته هو لم يتوقف .. فكانت نهاية المؤتمر هى نهاية حياته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .. أى فى نفس اليوم الذى وقع فيه الانفصال بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ .. ويوم الخميس أول اكتوبر تم تشييع جنازته من مقر مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة خلف حديقة قصر النيل .. وهو المقر الذى شهد بداية الثورة ..

– وبالطبع كنت هناك ليس فقط كصحفى بل وكروائى يشهد بعينيه تحولات التاريخ فى بلده ؟ !

– كانت القوات المسلحة والشرطة العسكرية وقوات الأمن قد منعت الوصول إلى مقر المجلس فاكتفى الصحفيون المصريون والعرب والأجانب بمتابعة الموقف وسط طوفان الجماهير التى جاءت لوداعه . أما أنا فقد شققت طريقى وسط الكتل البشرية المتراصة المتلاصقة فى التحام دامع حتى بلغت

حبيبتى التى تطل على ناصية مدخل كوبرى الجلاء والطريق الدائرى المؤدى إلى مقر المجلس .. وهناك حدث العجب العجاب !!

لاحظ فى عينى وميض الرغبة المحرقة لمعرفة ما حدث فى ذلك اليوم المهول ، فتقلصت أصابع يمناه على مسند المقعد وهو يقول :

– لم أعرف كيف صعد كل هؤلاء الشباب والصبية على فروعها برغم صعوبة تسلق جذعها .. تناثرت أوراقها على رءوس الواقفين تحتها بسبب أقدام المتسلقين وأذرعهم .. أصدرت بعض فروعها أنينا موجعاً إذ يبدو أن الثقل كان أكبر مما تحتمل .. كما أن الأنفاس المبهورة والمتقاربة أصدرت ما يشبه البخار الخانق للأنوف .. فجأة صدرت عن عزيزة صرخة مدوية أعقبتها صرخات كطلقات الرصاص .. انكسر أحد فروعها بمن عليه من الشباب والصبية وسقط على الواقفين أسفله . فسقط من سقط .. وجرح من جرح .. وداست الأقدام الفزعة المنطلقة بعيداً بعض الأجساد الملقاة على الطوار .. مع استحالة استدعاء الشرطة أو الإسعاف .. ففى لحظات مثل تلك لابد أن يواجه الإنسان قدره .. ومن خاض الطوفان لابد أن يواجه الغرق .. فلم يعد هناك نوح جديد .. كنت قد تخطيت الخمسين بعامين .. ولم يعد فى استطاعتى السباحة وسط أمواج البشر الهادرة بنشيد تلقائى من تأليفها ، مشحون بالشجن والحزن والدوى الذى يصم الآذان : « يا جمال يا حبيب الملايين ... » أو تزمجر بهتاف : « بالروح .. بالدم .. نفديك يا جمال ... بالروح .. بالدم .. حا نكمل المشوار » . أخذت فى التسلل حتى بلغت كوبرى الجلاء إلى بيتى فى الدقى حيث وجدت فى متابعة الجنازة بالتليفزيون أسلوبا أكثرواقعية وراحة .. أدركت فى تلك اللحظة أن حياتنا الفعلية نعيشها على صفحات الجرائد والمجلات .. وعلى موجات الإذاعة وشاشات التليفزيون .. إنك بصفة شخصية لا يمكن أن تعلم أو تدرك شيئاً .. فنحن كبشر عاديين لا نشارك فى صنع الأحداث .. بل على النقيض من ذلك تماما .. فإن الأحداث هى التى تصنعنا .. هى التى تقع لنا .. ولسنا الدافع وراء وقوعها .. نحن مستمعون أو متفرجون أو على أحسن الفروض قراء .. أما القرار فليس لنا به أية علاقة سوى تطبيقه علينا .. ولذلك تأخذنا

الأمواج إلى حيث تشاء كما جرفتني في ذلك اليوم أمواج البشر .. ولولا وقوفي بعيداً عن عزيزة لتأمل حملها الثقيل مشفقاً عليها وراثياً لها لكنت ضمن المصابين أسفل فرعها الذي هوى .. أو يبدو أنها ظلت متماسكة حتى أتيت كي تشهدني على ما جرى لها وكأنها كتب عليها أن تدفع ثمن كل التحولات التاريخية المصيرية !

دقت ساعة الحائط الثانية عشرة معلنة انتصاف الليل . أشعل سيجارة جديدة سحب منها نفسا عميقا أطلقه طويلا ونبراته تحمل بوادر اعتذار وأسف :

– أخاف أن أكون قد أثقلت عليك وأطلت أكثر من اللازم .. فأنا أعرف عدم ميلك للسهر !

ربت على ركبته في حنان دافق :

– معك حتى الصباح .. فأنا الآن أعيش معك أروع لحظات العمر !!

ربت على يدي بأصابعه النحيلة :

– لكن مصر التي علمت البشر منذ فجر التاريخ .. الحضارة بل الحياة نفسها .. عادت فجأة إلى روحهاالمتجددة .. أو عادت روحها إليها على حد قول توفيق الحكيم لتفاجيء العالم كله في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ بعبور الهزيمة واليأس والضياع والمرارة .. وتشرق مرة أخرى على الدنيا بوجهها الحضاري الجميل .. عشنا في الجريدة ثلاثة أيام من أجمل ما يمكن .. لم نترك فيها مكاتبنا وآلات التيكرز تعزف بأخبار انتصاراتنا أجمل سيمفونية ! ومع ذلك اشتد حنيني إلى عزيزة كي أستمتع برؤيتها بعد أن غسلنا العار .. وبالفعل بمجرد استطاعتي مغادرة مكتبي قبل مدفع الإفطار بدقائق انطلقت بسيارتي عبر كوبري قصر النيل صوب الجزيرة ومدفع الإفطار ينطلق بفرحة غامرة .. وهناك حول جذع حبيبتي رأيت أجمل مشهد وقعت عليه عيناي !

سألته دون تفكير :

– ماذا رأيت ؟ !

– افترش الرصيف بعض الجنود العاملين على العربات المصفحة الرابضه

عند مدخل كوبرى الجلاء وأمامهم أطباق الفول والطعمية وأرغفة الخبز البلدى والشامى وأكياس الطماطم والجرجير والبصل .. وكلماتهم وضحكاتهم تجلجل فى سكون الشارع الذى خلا من المارة والسيارات . لم أملك سوى أن أركن السيارة على اليمين وأعبر الشارع كالمنوم مغناطيسيا حتى وقفت أمامهم :

– السلام عليكم !

فانتفض بعضهم واقفاً وأمسك بتلابيبى :

– تفضل معنا .. رمضان كريم !

وقبل أن أفتح فمى بكلمة أجلسونى على الرصيف لأشاركهم الإفطار . كان أروع وألذ وأشهى إفطار فى حياتى .. تبادلنا الضحكات والنكات وأحاديث الأسرى الإسرائيليين الذين يقعون كالفئران المذعورة فى أيدينا .. ساعة بعد ساعة .. وخط بارليف الذى سقط بخراطيم المياه المصرية لدرجة أن موسى ديان اعترف أنه كان سداً من الجبن الجروبير الزاخر بالثقوب والفجوات برغم أنه تغنى بمناعته فى السنوات السابقة وقال بأن القنبلة الذرية هى الوحيدة الكفيلة بتدميره !

لم أستطع أن أمنع نفسى من التعليق الباسم :

– وهل كان جنودنا يعرفون هذا الجبن الجروبير ؟ !

عادت إليه ابتسامته الحانية :

– هذه إضافة من عندى .. المهم أن جنودنا الأحباء لم يتركونى إلا بعد أن صنع أحدهم الشاى الأسود وقدمه لى فى كوب من الزجاج الأخضر فتناولته بامتنان شديد وسعادة جارفة .. كأننى جالس فى شرفة فندق خمسة نجوم . لكننى كبحت جماح هذه السعادة الجارفة لأننى كنت على وشك أن أقص على الجنود قصتى مع عزيزة وأعكر صفو اللحظات الهائلة إذ تخيلت مقدماً نظراتهم الزاخرة بالشك فى قواى العقلية ، لكننى استعضت عن ذلك بنظرة احتوت عزيزة كلها وكأنها تبتسم لى فى رضى وتكاد تميل لتحتضن الجنود

بين فروعها وداخل أعشاشها مع العصافير واليمام النائم فى شرفتها وقد احتضن بيضه قرير العين .

تحول تعليقى الباسم إلى دعابة :

– لا تطلب منهم تفسير الإشارة الدلالية أو الدلالة الإشارية أو المفهوم الرمزى أو المعادل الموضوعى أو الإسقاط الإيحائى !!

ضحك فى اقتضاب قائلا :

– كنت واثقاً أن حسك النقدى سيتفاعل مع ما أقصه عليك !!

– أريده مكتوبا على الورق !

– سأنتهى من قصه أولا !!

– وأنا كلى آذان مصغية !!

– دارت عجلة الأحداث كما تعلم .. وسرعان ما أعلنت سياسة الانفتاح كنتيجة لنصر أكتوبر .. وفى بدايتها سعدت بها خاصة أنها بدأت بما سمى بالانفتاح الفكرى .. لكن سرعان ما تحول التركيز إلى ما سمى بالانفتاح الاقتصادى وسعدت به أيضا .. إذ أننى أخذته من المنظور البرىء والعفوى للأديب والروائى .. ولم الزم الحذر المدقق للكاتب الصحفى .. برغم أن محمد حسنين هيكل كان ينادى فى تلك الفترة من خلال أحاديثه ومقالاته فى الصحف الأوروبية والأمريكية بأن الذين أقاموا الجسور وعبروا القناة واخترقوا خط بارليف وصنعوا نصر أكتوبر قد عادوا من الجبهة ليجدوا غيرهم قد بادر إلى قطف ثمار النصر ولم يتركوا لأصحابه شيئاً .. أصبحوا كالأيتام فى مأدبة اللئام الذين يشترون الشاليهات فى الريفييرا الفرنسية والفيلات فى مالجا الأسبانية والقصور فى لندن والمزارع فى أمريكا !! وعندما اعتادت الأسماع كلمة المليونير التى كنا قد نسيناها منذ أيام عبود باشا والبدراوى باشا ، دخلت فى حياتنا كلمة الملياردير التى لم تعرفها مصر فى أشد عصور الإقطاع ضراوة .. من أين تدفقت هذه الأمواج العاتية من الأموال ونحن لم نضاعف إنتاجنا .. بل ضاعفنا نسلنا عدة مرات ؟ ! لا أعلم !! ثم سرت الشائعات حول الصفقات المشبوهة

والعمولات وعصابات تهريب المخدرات وتوزيع الكوكايين والهيروين !! كنت أتساءل باستمرار فى مرارة : أمن أجل هذا خاض أبطالنا حرب أكتوبر واستشهد منهم من استشهد ؟ ! لا أعرف لماذا شعرت بالحياة وهى تتآكل من حولى ؟ ! وكل القيم التى عشت من أجلها وهى تتفتت كأصنام من رمال ؟ ! لا أعرف لماذا انتابنى إحساس من ألقى به خارج هامش المجتمع بعد أن كان فى قلبه ؟ ! حتى طبقتنا الوسطى التى كانت قلب مصر النابض بالفكر والثقافة .. أصبحت كما مهملا .. لدرجة أننى قررت ألا ألبى الدعوات الموجهة إلىّ بعد آخر حفل حضرته فى السفارة الأمريكية !!

– خيراً .. هل وقع ما ضايقك ؟ !

– أبداً .. قوبلت بمنتهى الاحترام .. لكننى أدركت أنه برغم ارتدائى أحسن بدلة عندى كان منظرى كالصعلوك بين الملوك .. أنا الذى أفنيت نصف قرن من عمرى فى الفن والثقافة والأدب والفكر .. كانت الأزياء والعطور والسيارات الفارهة عالماً جديداً لم أره من قبل سوى فى الأفلام .. ولو كان من يتحلى بهذه الرفاهية من الأجانب لما شعرت بأى حرج .. فهذا حقهم .. هم بشر لا يعرفون فى حياتهم سوى العمل الدءوب والإنتاج المثمر والعلم المتطور .. لكننى وجدت أن ملابس الأجانب والأمريكيين بالذات أقل من العادية إذا ما قورنت بما يرتديه المصريون ! وعندما حاولت أن أكثف جهودى فى التأليف السينمائى فوجئت بأن المنتجين الفنانين الرواد قد رحلوا عن الساحة سواء بالاعتزال أو الانزواء أو الموت .. وظهرت طائفة ذكرتنى بتجارالخردة والخيش الذين دخلوا الإنتاج السينمائى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .. وعندما حاولت رفع أجرى فوجئت بمن يقول منهم :

– إذا كان نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل يقبل كذا .. فكيف تطلب أنت هذا المبلغ ؟ !

قلت له وأنا أدرك أننى أنفخ فى قربة مقطوعة :

– وماذا عن الراقصات والمهرجين الذين بلغت أجورهم أرقاما فلكية ؟ !

ابتسم ابتسامة الخبير بأحوال السوق :

– الجمهور عاوز كده .. عاوز الفرفشة والضحك .. لا التفكير والهم والغم !

تركته وإحساس ممض يطاردنى بأن نافذة أخرى قد سدت فى وجهى ، وخفت النور فى عينى ، وتراجع الهواء فى صدرى حتى أوشكت على العمى والاختناق !!

تذكرت مسحة الاكتئاب التى غلفت وجهه وحركته فى الفترة الأخيرة فقلت :

– كنا نتساءل فيما بيننا عن صمتك وشرودك وتجهمك .. لكننا لم نحظ بإجابة شافية .. احترمنا رغبتك فى الانطواء والعزلة ولم نجرؤ على مفاتحتك ولو تلميحا !!

– زهدت فى كل شىء .. حتى فى الإفضاء بما ينوء به صدرى ؟ !

– حتى لحبيبتك ؟ !

– ماذا كان يمكن أن أقول لها ؟ ! هل أحكى لها عن مذابح الأشجار التى تقع فى كل مكان ويقام مكانها أسوار من الأحجار وغابات من الأسمنت الكئيب ؟ ! هل أشرح لها التلوث الذى أصاب كل شىء : الهواء والماء والأخلاق والقيم ؟ ! هل أقول لها إنه لم يبق من أسرتها على قيد الحياة إلا القليل .. كما أن بنات عمومتها من شجرات الجميز والتوت قد رحلت عن دنيانا منذ فترة . فقد كبرت ومرضت ولم تجد من يحنو عليها فماتت وأخذت معها ذكريات أجمل الأيام عندما كنا نستظل بها ونحن صبية فى ريفنا القديم الجميل وتسقط علينا ثمراتها الكحيلة العين الحلوة المذاق فنروى بها بعض ظمئنا وعلى ساقها بعض الأسماء محفورة داخل قلب يخترقه سهم كيوبيد ؟ ! هل أقول لها إننى قرأت عن شجرة جميز عمرها خمسمائة عام فى إحدى الغابات بولاية ألاباما الأمريكية .. أقيم لها خصيصا منزل للرعاية المركزة لأن القيمة الأثرية للشجرة العتيقة تستحق إبقائها وليس تركها للزوال أو قطع رقبتها .. بل إنهم يوزعون شجرة احتياطية بين كل شجرتين كبيرتين حتى إذا ماتت العجوز عاشت

الأشجار الشابة !! ولماذا أقول لها هذا وفروعها الضامرة وأوراقها الشاحبة تحت وطأة الغبار وعادم السيارات المارقة كطلقات الرصاص أو المتسكعة فى طوابير الزحام الخانق ، تغنيها عن أى قول ؟ ! بل إن أجيال اليمام التى تربت وعاشت فى شرفتها رحلت بلا عودة .. وأصبحت الشرفة مليئة بعلب المياه الغازية الفارغة الصدئة والأوراق القذرة وأعقاب السجائر التى تتطاير ببقايا الرماد مع رياح الأتربة والرمال التى تلطم العيون والوجوه من حين لآخر !!

سألته حتى يسترد أنفاسه للحظات :

– هل توقفت عن زيارتها فى الفترة الأخيرة ؟ !

– لم يتبق لى سواها .. أكثرت من زيارتى لها .. لكنها التزمت الصمت الرهيب ولجأت هى الأخرى إلى الانطواء أو العزلة !! أصابت اللحاء الذى يحيط بجذعها شقوق كمن أصابت جلده تقيحات .. وتساقطت بعض قطع اللحاء .. كانت تقاوم الإعياء وتحاول تغطية فروعها الداكنة بالأوراق الخضراء .. لكنها بدت كإنسان بلغ من العمر أرذله والصلع يزحف على رأسه الأشيب !! تماماً مثل الصلع الذى أطار بالبقية الباقية من شعرى ! وذات مرة فوجئت ببعض بقع الدم وخيوطه متناثرة على جذعها فطاش صوابى وتحريت .. فجاءت الإجابة من حراس الكوبرى والبحارة العاملين على إحدى السفن السياحية الراسية أمامه ... . قبل انبلاج الفجر وقفت سيارة سوداء فاخرة تحت الشجرة وقد اختفى من بداخلها خلف زجاج داكن فبدت كتلة من الظلام المطبق .. وسرعان ما جاءت سيارة أخرى وقفت بحذائها وعندما فتحت الأبواب وشرع ركاب السيارتين فى اللقاء والحديث الهامس ، دوت أبواق مكبرات الصوت من كائن خلف الأشجار المائلة بجذوعها على مياه النيل :

– سلم نفسك انت وهو .. وإلا سنضرب فى المليان !

وسرعان ما تحولت المنطقة إلى ضوء مبهر ووابل منهمر من الرصاص المتبادل بين ركاب السيارتين ورجال الشرطة .. وبعد انطلقات وتطاير زجاج السيارات والصرخات والآهات التى لم تصمت إلا عند انبلاج الفجر .. قدمت سيارات

الإسعاف لنقل القتلى والجرحى من المهربين الذين اختاروا شجرتى أنا بالذات لنقل وتوزيع صفقة من الهيروين تحتها .. فكانت الشرطة لهم بالمرصاد ..

وجدت نفسى دون أن أقصد وأنا أشاركه ذكرياته :

– هذه الشجرة التى شهدت ثورة ١٩١٩ .. والتى أنقذتك من رصاص الإنجليز فى مظاهرة ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ .. والتى جلس تحتها جنود أكتوبر ١٩٧٣ يتناولون إفطار رمضان ؟ ! – هذه الشجرة نفسها عاشت زمنا لم يجد فيه مهربو الهيروين مكانا سواها كى ينفثوا سمومهم .. ومع ذلك انتقمت .. كانت فى الماضى تفدى المجاهدين الثائرين وتتلقى الرصاص نيابة عنهم .. أما هذه المرة فتركت دم المهربين يسيل رخيصاً على جذعها .. فما زالت قادرة على استيعاب متغيرات الحياة ! لكن يبدو أن الانقلاب كان أعنف مما يحتمل إذ لايعقل أن تتغير الأحوال من النقيض إلى النقيض وكأن ما كان لم يكن .. وكأن ما سيكون مجهول لا يمكن التعرف على ملامحه !

صمت للحظات ثم قال كأنه يسأل نفسه :

– هل يعقل أن ينتقل الإنسان من وطنه إلى أرض أخرى دون أن يغادره ؟ ! أو ينتقل من زمنه إلى زمن آخر غريب ومريب لمجرد مرور بضع سنوات هى مجرد لحظات فى عمر الزمن ؟ !

أمنت على كلامه :

– إن المثقفين يمرون بمحنة قذفت بهم هذه المرة إلى خارج حدود المجتمع .. فلم يعد لهم مكان فيه .. من يملك العقل لا يملك المال .. ومن يملك المال لا يملك العقل !

واصل حديثه كأننى لم أقل شيئاً :

– مرت الأيام بلا طعم ولا لون ولا رائحة .. وإذا كان هناك طعم فهو مرارة الحلق .. أو لون فهو لون تراب الخماسين ورمالها كما حدث اليوم .. أو رائحة فهى رائحة طفح المجارى فى الشوارع الخلفية والأزقة التى يتكاثر فيها الناس كأسراب البعوض .. وأصبحت سلوتى الوحيدة للهروب من هذا

الكابوس السير على الأقدام كلما أتيحت لى الفرصة .. وشغل البال بمتابعة واجهات المحال الزجاجية .. وهو ما فعلته صباح اليوم .. قررت أن أسير من البيت حتى حديقة الحرية أو قصر النيل كما كانت تسمى على أن أستقل من هناك سيارة أجرة إلى مقر الجريدة .. خاصة وأننى عندما استيقظت فى الصباح اجتاحتنى موجة عارمة من الاكتئاب الذى كنت أعالجه بالسير على الأقدام .. وكان هذه المرة ممزوجا بحنين لزيارة حبيبتى .. حنين لم أعرف له سبباً واضحاً سوى نداء خفى غامض ممض .. خرجت من البيت حوالى العاشرة صباحا وحمدت الله أننى لم أطلب سيارة الجريدة لتوصيلى .. كان الشارع المؤدى إلى كوبرى الجلاء مكتظاً بالسيارات المتراصة الهادرة بمحركاتها دون حركة .. سرت بحذائها وأنا أتأمل الوجوه المتفجرة بالحنق والغيظ داخلها ، والعاصفة الترابية الخانقة خارجها ، ودخان العادم المتدفق من بين العجلات ليصل محمولاً على التراب العالق إلى العيون الكسيرة المجهدة .. ومع ذلك كنت قانعاً راضياً بانطلاقى حراً بعيداً عن هذه الصناديق الحديدية التى أصبحت زنزانات لا مفر منها ولا مهرب .. كانت الألسنة تتساءل عن السبب فى هذا التوقف الرهيب فى حركة المرور وكأن شرايين القاهرة قد أصيبت بالتصلب والانسداد . ولكن لا إجابة .. مقنعة أو غير مقنعة .. لكن الإجابة كانت هناك قابعة كالكابوس بعد أن عبرت الكوبرى الذى تراصت عليه السيارات .. كان الأسى هذه المرة فى العيون والصمت فى الأفواه وكأن الجميع فى موكب جنائزى مهيب .. كان جسد حبيبتى مسجى يكاد يغطى عرض الشارع وقد مدت إليها سلاسل ونش عملاق يحاول رفعها لإفساح الطريق لحركة المرور المتوقفة .. لم أملك سوى شهقة خرجت من أعماق صدرى وأنا أجرى كالمجنون أكاد أنحنى عليها لأقبلها قبلة الوداع .. كان الونش يصارع بسلاسله الغليظة كى يحركها بعيداً عن الطريق ، وإطاراته المطاطية العملاقة تكاد تنفجر تحت ضغطها ، وجذعها وفروعها تحك الرصيف والطريق الأسفلتى فتصدر صوتاً كأنين ممض قادم من أعماق الغيب .. توقفت حركة المرور على الاتجاه العكسى أيضاً فى انتظار عبور حبيبتى للشارع إلى مكان ما .. وضباط المرور وجنوده يشرفون على عملية نقلها وكأنهم فى جنازة عسكرية .. سألت أحد المشرفين على نقلها :

– متى سقطت ؟ !

– منذ ساعتين .. لكن العجيب أنها لم تصب أية سيارة من السيارات المارة .. اختارت اللحظة المناسبة للسقوط على الأرض ..

واصلت تأمل جسدها فرأيت أن بعضا من العفن قد أصاب جذرها .. لكنه لم يكن ضاربا فيها لدرجة إسقاطها .. بل كانت هناك بعض الوريقات الخضراء النضرة المتناثرة بين فروعها والساقطة على الطوار والشارع .. كانت قادرة على النماء والعطاء لآخر لحظة .. سألت نفس المشرف مرة أخرى :

– هل هناك حملة لقطع أشجار هذا الرصيف والتخلص منها ؟ !

أجاب الرجل وهو يتابع تحركات الونش المتثاقلة ورافعته التى تكاد تنحنى لتقبل الأرض :

– قلت لك إنها سقطت من تلقاء نفسها !

– هل بسبب هذا العفن والتحلل عند جذرها ؟ !

– ليس إلى هذا الحد .. فالأشجار من هذا النوع تعيش أطول من هذا بكثير !!

– هل هناك سبب آخر ؟ !

– علم هذا عند الله ..

– هل يمكن أن تنتحر الشجرة مثل الإنسان ؟ !

نظر إلىّ الرجل وقد خيل إليه أنه أساء التقاط كلماتى المرتعشة المترددة :

– ماذا ؟ ! ماذا قلت ؟ !

– ابداً لم أقل شيئاً !

لاحظ الرجلا الحمرة الممزوجة بالدموع فى عينى فقال :

– إذا كان تراب الخماسين يؤذى عينيك فلا داعى للانتظار هنا !!

– شكراً !

وتظاهرت بأننى أمضى بعيداً لكن قدمىّ سرعان ما تسمرتا فى الأرض ،

وعينىّ لم تفارقا العزيزة وقد بدأت تدور فوق أرض الشارع مع رافعة الونش التى كانت تئن بدورهاوالإطارات المضغوطة إلى درجة الانفجار الوشيك .. كان السكون يلف الكون برغم طوابير السيارات المتراصة على اتجاهى اليمين واليسار ، والعيون المحدقة بالعزيزة وهى معلقة بالسلاسل الحديدية الغليظة فى عبورها الشارع إلى الطوار الآخر وأنا أتابعها بعينين ملهوفتين وأتبعها بقدمين مرتعشتين كالمنوم مغناطيسياً .. تذكرت يوم رحيل عبد الناصر حين شعرت بجزء من حياتى وهو يقتطع بسكين حامية .. ونفس الإحساس الحاد انتابنى يوم اغتيال السادات .. لكننى هذه المرة يطعننى إحساس بجذورى وهى تجتث من حياتى !

صمت ودقات الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تملأ فراغ السكون الرهيب . حاولت أن أخفف من حدة الإحساس المأسوى :

– هذه العزيزة قدمت لك أروع هدية فى حياتها وفى حياتك !

– إنها عمرى !

– أقصد أنها أهدت اعظم قصة يمكن أن يخطها قلمك .!! ستكون الدرة النادرة بين الروايات والقصص التى كتبتها !

شرد بنظراته عبر الظلام الجاثم على الكون خارج النافذة وهو يقول :

– لا تزال الحياة قادرة على كتابة الأعمال الأدبية التى يعجز عنها أكبر الأدباء !!

– كنت أود أن أراها بدورى .. فأنا الآن أكاد أموت حنينا وشوقا وأسى عليها !!

نظر فى عينى بوميض خاب كسير :

– لقد حملوها إلى الرصيف العريض الموازى لكورنيش النيل وألقوها هناك .. وعندما سألت ماذا سيفعلون بها ؟ ! قالوا : سيأتى مقاول لتقطيعها بحيث يسهل حملها إلى حيث تصنع منها الساقية والطبلية والأورمة التى يقطع عليها الجزار اللحم ..

حاولت أن أبتسم لكننى فشلت وعدوى الإحساس المأسوى تنتقل إلىّ وتنبض فى عروقى :

– حتى فى مماتها عظيمة .. تمد الفلاح بالساقية التى تروى الأرض وتنبت الخير .. والطبلية التى تلتف حولها أسر البسطاء الكادحين ساعة العشاء .. والأورمة التى تقدم للأثرياء أشهى أنواع اللحوم ! غداً سأذهب معك للاشتراك فى وداعها !! فلابد أن تقطيعها ونقلها يستغرقان سي أو يومين !

– لا أحتمل منظرها والمناشير تغوص فى لحمها !! ظلت صامدة شامخة صابرة أكثر من قرن من الزمان .. لم ينكسر لها سوى ذلك الفرع الذى سقط تحت وطأة المتعلقين به يوم رحيل عبد الناصر !! أما صباح اليوم فقد بدت الشرفة أو الفجوة التى عاشت فيها أجيال اليمام فوهة مظلمة نخرة كحفرة الموت !

– هذه هى سنة الكون ؟ !

– كنت أظنها كالأهرام وأبى الهول والكرنك والنيل والمقطم !

– حتى أبى الهول مهدد بالسقوط نتيجة لأملاح الرطوبة ورشح المياه الجوفية .. ويقال إن هذه المياه تهدد الكرنك أيضاً ! أما النيل فقد أصبح تحت رحمة المصانع والورش التى تصب فيه مخلفاتها بلا رحمة فتجعل لون مياهه رماديا كالرصاص !!

نهض وهو ينظر إلى الساعة المعلقة على الحائط الوردى أمامه :

– أثقلت عليك الليلة أكثر من اللازم !!

– بل أثرتنى وأمتعتنى بأروع ملحمة معاصرة يمكن أن يتناولها ناقد بالدراسة والتحليل !! لن يهنأ لى بال إلا بعد أن تخلدها فى كتاب منشور !

سار صوب الباب بقدمين ثقيلتين كالرصاص :

– يبدو أننى عشتها بكل جوارحى عمراً بأكمله بحيث لا يرقى أى تعبير قصصى إلى مستواها .. ولا يستطيع أن يحتوى كل أبعادها !

– لست أنت الذى تقول هذا الكلام !!

– تصبح على خير ..

مد يده بالسلام فلم أعرف لماذا احتضنته بحرارة غير عادية فومضت عيناه ببريق دموع وتخلص من ذراعى برقته المعهودة ثم فتح الباب وخرج . حاولت أن أبقيه مفتوحاً لكنه بيد صلبة أغلقه من الخارج حيث ابتلعه الظلام !

داهمتنى كآبة غامضة أوحت إلىّ بأنه لن يكتب هذه القصة . وعندما آويت إلى فراشى اشتدت وطأة الكآبة فطردت أية بادرة للنعاس . شغلت نفسى بالبحث عن عنوان يليق بقصته الملحمية . ومع خيوط الفجر الأولى سعدت بالخاطر الطارئ : فى الصباح سأطلبه بالتليفون لأخبره بالعنوان : « مرثية لشجرة عظيمة » .

تركت نفسى لفترات من النوم الخفيف المتقطع الحافل بصور متناثرة بعضها باهت مهزوز والبعض الآخر حاد فى ظلاله وألوانه : الشجرة .. كوبرى الجلاء .. حديقة الحرية .. الأستاذ .. بقع حمراء قانية تقترب فتبدو طرابيش المتظاهرين .. صفحة النيل المتسربلة بأردية التراب والرمال تحت أشجار الكافور المائلة .. مكاتب الجريدة وآلات التيكرز تدق .. وأجراس التليفون ترن .. ترن .. ترن .. يبدو أنه جرس حقيقى .. تنبهت ونهضت .. كان ضوء الشمس يتسلل من خلف ستار النافذة .. وصوت زوجتى يرد على التليفون :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. قلبى معك .. سأوقظه فوراً !

هرعت زوجتى إلى غرفة النوم فوجدتنى أرتدى ملابسى وأقول لها :

– أخت الأستاذ ؟ ! أليس كذلك ؟ ! أعدى لى كوب شاى .. سأذهب إلى هناك فوراً !

– هل كنت تعرف شيئاً ؟ !

– كنت أشعر بذلك عندما تركنى أمس .. أما هو فيبدو أنه كان يعرف !

ابتلعت كوب الشاى وطويت درجات السلم إلى سيارتى لأنطلق بها إلى بيت الأستاذ وأنا أقاوم رغبة عارمة فى البكاء . استعنت عليها بتأمل قصة الليلة الماضية التى سأسجلها بمجرد الانتهاء من وداعه . سأكتبها بحذافيرها وتفاصيل

حوارها الذى دار بيننا . تشاغلت باختيار عنوان آخر مناسب لها حتى بلغت مدخل البيت الذى تعلمنا فيه النقد والأدب والفن والفكر والثقافة فى ليالى الأنس والصفاء التى ولت . وعندما خطوت على أول درجات السلم العتيق حيث تناهى إلى أذنى صوت بكاء مكتوم ، حضرنى عنوان القصة : « مرثية لفنان عظيم » . .

* * *

ومرت الأيام وكلما فكرت فى كتابة القصة صرفنى عنها هاجس غامض . هل كانت الشحنة المأساوية أكثر مما احتمل ؟ ! هل عز على نفسى أن أكتب قصة هى فى حقيقتها مرثية لأستاذى الحبيب ؟ خاصة وأن تأثيره لا يزال ينبض فى فكرى ووجدانى ؟ !

تساؤلات كثيرة غمرت سواحل فكرى ووجدانى بالحيرة التى أضاعت صفاء الرؤية وعمق البصيرة . وظللت على هذه الحال حتى أمرتنى القصة ذات صباح بكتابتها . كانت حركة المرور تسير متثاقلة إلى جوار طوار حديقة الحرية . حاولت أن أقتل الملل بالإنصات إلى موسيقى المسجل ، لكن بمجرد أن تهادت سيارتى بحذاء موقع الشجرة ، لمحت عينى شجرة وليدة نابتة مكانها وقد تناثرت الوريقات الخضراء فى حياء بالغ على الفرعين اللذين توجا جذعها الرقيق .

عاش جمال عبد الناصر

فى أوائل الستينيات اعتدت أن أستقل أتوبيس رقم ٥٢ من ميدان التحرير إلى مقر عملى كمدرس للغة الإنجليزية فى المدرسة القومية للبنين بمصر الجديدة . كانت الأتوبيسات تقوم فى مواعيد تحدد بالدقيقة ، وكان أنسب ميعاد لى هو أتوبيس السابعة وخمس دقائق بحيث أتواجد فى المدرسة قبل طابور الصباح الذى ينتظم فى تمام الساعة الثامنة .

فى ذلك الصباح كان من حظى أن أحتل أول مقعد فردى على اليمين . وكالعادة سرعان ما امتلأ الأتوبيس بالجالسين والواقفين . لكن الأتوبيس لم يتحرك كعادته فى السابعة وخمس دقائق . لمعت نظرات القلق والضيق فى العيون التى اخترقت نوافذ السيارة لترصد السائق الواقف إلى جوار مكتب ناظر المحطة يتناول قطعة من السميط ومعها كوباً من الشاى الأسود . كان يتجاذب أطراف الحديث مع الناظر ويعبر له عن رغبته الملحة فى العودة للعمل سائقاً فى القوات المسلحة ، إذ أن قيادة الأتوبيسات واللوريات بين المعسكرات والثكنات فى الطرق الصحراوية الخالية أفضل ألف مرة من قيادة الأتوبيسات المدنية فى شوارع القاهرة المرعبة وسط صراخ الركاب ، الصاعدين منهم والهابطين على حد السواء .

صمت السائق ليبتلع آخر قطعة سميط ويشعل فى أعقابها سيجارة أطلق دخانها بغزارة من أنفه .علق ناظر المحطة وهو يراجع جدولا ضخماً أمامه على المكتب القابع خلف نافذة الكشك :

– الله يعمر بيته المشير .. لولاه لتوقف عدد كبير من أتوبيسات الهيئة .. فالسائقون الملاعين يفضلون الآن العمل على سيارات التاكسى .. فهى مجزية ومريحة .. عبد الوهاب نفسه عنده خمسون تاكسى مرسيدس تجرى فى شوارع البلد ..

أجاب السائق وقد استند بكتفه إلى كشك الناظر ووضع يده فى جيب بنطلونه الكاكى :

– جت على دماغنا .. كنت من المنحوسين الذين تم اختيارهم للعمل فى هيئة النقل العام .. بعد أن كنت سلطان زمانى فى الأتوبيس الكاكى !!

– علقة تفوت ولا حد يموت !

قالها ناظر المحطة وهو ينظر إلى ساعة يده فى قلق وكأنه يخشى أن يطلب من السائق التحرك بالأتوبيس . لزم الصمت وكأنه ينهى اللقاء ، لكن السائق واصل وقفته المعوجة وتدخين سيجارته بشراهة واضحة .

فى داخل الأتوبيس سيطرت الحركات العصبية على الجالسين والواقفين ، وانطلقت تنهدات الضيق والتبرم ومصمصات الشفاة وسهام النظرات الحانقة . لكن السائق لم يتحرك .

بدا راكب خلفى بمقعدين على وشك الانفجار فلفت نظرى بشدة ، وبالفعل فتح زجاج النافذة وصاح فى السائق :

– فات ربع ساعة على ميعاد قيام الأتوبيس !! ما الحكاية يا أسطى ؟ !

تجاهل السائق الطلقات التى دوت فى أذنيه ، فكررها الراكب بحدة أشد . فما كان من السائق سوى أن قال ببرود ثقيل وهو يتحسس شاربه الكث :

– نحن فى خدمة الدولة .. وليس فى خدمتكم .. ومن لا يعجبه يأخذ تاكسى !

فتح راكب آخر نافذة خلفية :

– ونحن أيضا جزء من الدولة .. فنحن لسنا من إسرائيل !! أم أن هذه هى الاشتراكية ؟ !

تدخل ناظر المحطة فى الحوار دون أن يرفع عينيه من على الجدول الطويل العريض أمامه وهو يضبطه بمشبك الغسيل على لوح من الكرتون :

– توكل على الله يا أسطى ..

ألقى السائق عقب السيجارة على الطوار وفرمه بحذائه الأسود الثقيل ذى العنق الطويل ثم صعد على درجات سلم الأتوبيس وهو ينظر إلى الركاب شذراً . جلس إلى المقود وأدار المحرك . لم يستطع راكب أنيق يجلس خلف السائق مباشرة أن يكبت حنقه :

– أليست الأتوبيسات بمواعيد ؟ ! أم أن كل سائق بمزاجه ؟ !

أدار السائق عنقه ليطل برأسه خلف الحاجز الزجاجى الأزرق الذى يفصله عن الركاب :

– كل واحد عنده كلمة .. يحطها فى بقه أحسن له !!

لم يحتمل الراكب الأنيق هذا الأسلوب السوقى :

– ما هذا اللسان الطويل ؟ ! تكلم بأدب أحسن لك !!

كان السائق قد تحرك بالأتوبيس عدة أمتار فأوقفه بعنف أوشك بالركاب الواقفين أن يتساقطوا لولا تشبثهم بالعمود المعدنى المثبت فى السقف . وقف السائق ليواجه الركاب ببريق عينيه المخيف وجثته الضخمة بمنكبيها العريضين :

– من رد علىّ .. يقول أنا رجل ويطلع لى !

نظر الراكب الأنيق فى حيرة إلى الركاب المحيطين به ثم نهض دون تفكير قائلا :

– أنا !!

فربت السائق بعنف شديد على كتفه :

– تكلم على قدك يا شاطر !

أزاح الراكب يد السائق من على كتفه :

– احترم نفسك أحسن لك !

لكمه فى صدره :

– أعلى ما فى خيلك اركبه !

رد الراكب اللكمة فاندفعت المشاجرة بتبادل لكمات كانت الغلبة الساحقة

فيها للسائق وسط ذهول الركاب الذين سرعان ما زاولوا هوايتهم المفضلة فى الفرجة الطاردة للملل والرتابة . ولولا تدخلى مع جار الراكب والكمسارى الذى ترك قطع التذاكر وهرع إلى المقدمة لفض المشاجرة لحدث ما لا تحمد عقباه للراكب الذى لم يعد أنيقاً .

أجلست الراكب مكانه وربت على كتفه وطيبت خاطره وصدره لا يزال يصعد بأنفاسه المبهورة فى حين واصل السائق النظر إليه شذراً لولا دفع الكمسارى له أمامه حتى أجلسه على مقعده وهو يربت على ظهره :

– يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم !! ربنا يستر طريقك !! المهم أعصابك !! فى يدك أرواح ناس !

تحرك الأتوبيس فى بطء شديد ليستدير حول القاعدة الرخامية البنية التى كان من المفروض أن يقام عليها تمثال الجندى المجهول . ويبدو أن السائق قرر أن يصطاد كل الإشارات الحمراء ليقف أطول مدة ممكنة متلذذاً بالصمت الذى ران على الركاب وإن كان بعضهم قد اقتصر على الإفضاء بتعليقاته لجاره أو المحيطين به إيثاراً للسلامة ، إذ أن أى اعتراض لن يؤدى إلا إلى مزيد من التأخير وربما ذهب الأتوبيس بمن فيه إلى قسم الشرطة !

– يسير على قشر بيض !

قالها ابن بلد يرتدى جلباباً رماديا ولاسة بيضاء ثم أضاف بنفس الصوت الخفيض :

– لولا استعجالكم لجعلت وجهه شوارع !

ضايقته نظرات الشك فى عيون السامعين فسرح ببصره عبر زجاج النافذة ليتابع جميع السيارات التى تسبق الأتوبيس الذى يتحرك مثل فيل عجوز مريض . قال راكب مبتسم لجاره الذى يبدو أنه صديقه :

– يبدو على هذا السائق أنه لا يعرف كيف يسوق !!

أجاب صديقه هامساً :

– لا تقل مثل هذا الكلام .. إنه من السائقين الذين أرسلهم سيادة المشير

إلينا !!

– ياه .. إذاً نحن الذين لا نعرف كيف نركب !

ثم ضحك ضحكة مقتضبة لم يشاركه فيها صديقه بل تجاهل كلماته وهو ينظر حوله فى توجس .توقف الأتوبيس عند إشارة الإسعاف مدة لا تقل عن عشر دقائق . والسائق يتلفت من حين لآخر إلى الركاب بنظرات توحى باستعداده لتأديب أى راكب يظن فى نفسه القدرة على المساس بذاته المصونة ، فى حين قبع الراكب الأنيق المضروب وقد نكس رأسه على شكل قمة بركان على وشك الانفجار .

أضيئت الإشارة الخضراء لكن الأتوبيس واصل سيره بسرعة السلحفاة فهتفت امرأة سمينة ملتحفة بملاءة سوداء وقد قبعت فى منتصف مقاعد الدرجة الثانية :– قالوا لى اذهبى إلى باب ٦ .. هناك يمكنك أن تعرفى كل شىء عن ابنك الغائب فى اليمين !!

سألها ابن البلد وهو يضبط فتحة جلبابه الرمادى حول رقبته :

– ابنك مجند فى اليمن ؟ !

– أيوه يا بنى .. كل زملائه نزلوا فى إجازات إلا هو ؟ ! لم أره منذ سفره مع كتيبته !!

– هل سألت زملاؤه عنه ؟ !

– لا أحد يعلم عنه شيئاً !

– اطمئنى .. كل شىء سيكون على ما يرام !

– من بقك لباب السماء يارب !

علق رجل أصلع يرتدى نظارة سميكة ويجلس خلفى وكأنه يناجى نفسه :

– ما لنا ومال اليمن ؟ ! نبحث عن المصائب ونحشر أنفسنا فيها !

كان الأتوبيس قد ازدحم بعد إشارة الإسعاف . صعدت فتاة جميلة ممشوقة القوام فى فستانها الضيق لتقف إلى جوار مقعدى وخلفها رجل يرسم على

وجهه وقاراً عجيباً لكنه يتحين فرصة الصاعدين والهابطين محاولا الالتصاق بها ووجهه يتظاهر بالضيق وشفتاه تنطقان بالتأفف ممن يضغطون عليه فيلتصق بها ، وتحاول هى بدورها أن تبتعد عنه قدر إمكانها ، لكنه يصر على مواصلة ضيقة وتأففه والتصاقه .

قررت أن أوقفه عند حده بصنعة لطافة . فأنا أملك مقعداً يمكن أن يحميها من التصاقه ويوفر عليه تأففه المتصاعد . نهضت وأجلستها مكانى وهى تشكرنى بكلمات متقطعة وقد بدأت الحمرة تنداح من على وجهها . استدار الرجل ليتشاغل بالنظر عبر النافذة وقد حل الحنق على وجهه محل الوقار العجيب ، فى حين منحتنى وقفتى القدرة على متابعة كل الوجوه والتعليقات ، فقلقى من الوصول متأخراً إلى المدرسة لن يضاعف من سرعة الأتوبيس ، كما أننى لا أستطيع أن أستبدله بأتوبيس آخر ، ففى هذه المنطقة من قلب القاهرة لا فرق بين الأتوبيسات وعلب السردين . أما ركوب التاكسى فكان رفاهية لا يقدر عليه مدرسو ذلك الزمان .

فجأة تكلم رجل نحيل القوام ، أكرت الشعر ويبدو أكبر من سنه وعلى وشك الانفجار وهو يضرب كفاً بكف .

– هذا ثانى يوم أتأخر فيه عن ميعاد المدرسة .. فى المرة الماضية نهرنى الناظر أمام التلاميذ وهو يصرخ : كيف تدرس الميثاق للتلاميذ وتعلمهم أن العمل حق .. العمل حياة .. العمل عبادة .. العمل واجب وأنت أول من يهمل فى أداء الواجب ؟ ! أبديت أسفى واعتذارى البالغ وتعهدى بعدم تكرار التأخير .. وهأنذا اليوم أتأخر للمرة الثانية فى نفس الأسبوع .. كارثة والله العظيم كارثة !!

التفت إليه رجل مسن كان يجلس أمامه :

– أفضل لك أن تأخذ اليوم أجازة عارضة !!

– لم يتبق من إجازاتى العارضة سوى يومين .. وما زالت السنة بحالها !

– إذاً .. لم يتبق لك سوى أن تعمل حسابك وتنزل من بيتك فى الخامسة صباحاً !

– عيشة تقرف والسلام !

توقف الأتوبيس فى إشارات ميدان رمسيس ، الواحدة بعد الأخرى فصاح ممرض يرتدى زيه الأبيض :

– فى الأسبوع الماضى خصم منى نصف يوم لتأخرى .. ويبدو أننى سأرفت اليوم !

تدخل الكمسارى فى الحوار لأول مرة بعد أن انتهى من قطع كل التذاكر :

– الأرزاق على الله .. لا أحد يموت من الجوع !

علق الممرض :

– لكن ممكن يموت من الخوف !

صاح شيخ معمم كان واقفاً عند مؤخرة الأتوبيس :

– من يعرف الله عز وجل لا يعرف الخوف !

قال مجند كان يقف وسط مجموعة من زملائه :

– نحن نترك بيوتنا قبل الذهاب إلى المعسكر بثلاث ساعات على الأقل ! الجيش علمنا أن الاحتياط واجب !

استدار الرجل الأنيق الذى ضربه السائق ليقول وقد استعاد توازنه :

– فى أمريكا لا يظهر الجنود أو المجندون فى شوارع المدن إلا فى حالة الحرب فقط .. أما فيما عدا هذا فالمعسكرات والثكنات والقواعد العسكرية مغلقة عليهم فلا يراهم أحد بأزيائهم .

قال المجند مبتسما فى سخرية :

– ما لنا ومال أمريكا .. نحن هنا فى مصر !

أضاف مجند آخر من زملائه :

– كما أننا فى حالة حرب فى اليمن !

لم يرض الرجل الأنيق أن يتلقى هزيمة أخرى فيما لا يزيد على نصف ساعة :

– إذا كان لا بد .. فلابد من تخصيص وسائل مواصلات لنقلكم دون

احتكاك بالجمهور !

لم يصمت المجند :

- فعلا .. حتى لا تصابوا بالجرب !

اعتذر الأنيق فى نبرات مستسلمة زاخرة بالإحباط :

- آسف .. لم أقصد هذا على الإطلاق !

علق مجند آخر :

- نحن نتمنى مواصلات خاصة بنا .. وإذا كان البيه لديه واسطة فليس عندنا مانع !

انفجر المجندون ضاحكين فعاد الرجل إلى جلسته وقد نكس رأسه على شكل قمة بركان خامد .

ران الصمت مرة أخرى بين الركاب فلمحت رجلا مستغرقاً فى نوم عميق وقد أسند رأسه إلى زجاج النافذة ، ومع ذلك كان يفتح عينيه من حين لآخر عندما يحتد الجدل والنقاش بين الركاب . لم يكن ملفتا للنظر ومع ذلك كان جاره ينظر إليه من حين لآخر فى ريبة . كان الجار رجلا سميناً أصلع بنظارة سميكة تكاد تهبط إلى أرنبة أنفه وقد التزم الصمت الكامل ، بل إنه حرص على مسح تعبيراته التى توحى بأى تأييد أو رفض للآراء التى تتناثر بين الركاب فى حوارهم الذين يهربون إليه من قلقهم .

فجأة نهض شاب فى المقاعد الخلفية للدرجة الثانية وفتح الشباك صائحا :

- سنختنق .. الأتوبيس ليس فيه نسمة هواء !

أغلقه الرجل الجالس إلى جوار الشباك :

- وآخذ أنا التهاب رئوى ؟ ! نحن فى عز طوبة !

أعاد الشاب فتح الشباك شاعراً بكرامته المجروحة :

- الأتوبيس يسير على قشر بيض .. ولا خوف من هواء الصباح !

أغلقه الرجل مرة أخرى :

– كل واحد حر فى شباكه .. افتح الشباك بجوارك !

– ليس عندى شباك .. الزجاج مغلق !

– ليست مشكلتى يا سيد !

فجأة استيقظ الرجل المستغرق فى النوم ليقول لهما :

– نأتى فى الفارغة ونتصدر .. الشباب يموت فى حرب اليمن وأنتما تتعاركان على فتح الشباك وقفله !

صاحت أم المجند الغائب فى اليمن :

– ربنا يجيبك بالسلامة يا على .. ليس لى أحد غيرك فى الدنيا !

لم يفتح أحد فمه بتعليق عند ذكر حرب اليمن ! دار الرجل الذى كان مستغرقاً فى النوم بعينين جاحظتين محدقتين فى وجوه الآخرين لعل أحدهم يلقى بتعليق أو حتى بكلمة لكنه عاد بخفى حنين . أوشك جاره السمين الأصلع ذو النظارة السميكة على أن يجلس على حافة المقعد وعينه اليسرى ترمش فى عصبية ناظراً إلى ساعته كأنه يتعجل لحظة نزوله من الأتوبيس !

عاد الرجل إلى الاستغراق فى النوم فى حين بدا الركاب وكأنهم فقدوا الرغبة فى الحديث ، إما مللا أو خوفاً ، لا أحد يعرف على وجه التحديد . وعند الالتقاء العرضى للنظرات بينهم سرعان ما كانوا يغضون البصر . التقت نظراتى برجل فارع القوام كان يمسك بالعمود المعدنى المثبت فى السقف ، لكنه سرعان ما تشاغل بقراءة الصحيفة المطوية فى يسراه .

أما الشاب الذى لم يفتح فمه بكلمة ، ولم ينظر إلى أحد فكان يجلس فى المقعد الثالث فى الدرجة الأولى وقد انهمك فى تصفح مجلة « الشبكة » خاصة صور الممثلات فى المايوه البكينى والراقصات فى البدلة الشفافة . كانت المجلة تمثل عالماً خاصا به استغرقه تماماً ، فى حين كان الكهل الجالس إلى جواره يداوم النظر بعينى الصقر إلى صور المجلة من حين لآخر فى كثير من التأفف ، ومع ذلك لم يرفع عينيه عن الصور المتتابعة ، ولم يتخل فى الوقت نفسه عن تأففه المتصاعد !

كانت شبورة الصباح قد انداحت وصفت الرؤية تماماً ، والأتوبيس يتهادى في شارع رمسيس صوب العباسية تحت أشعة الشمس التى سرت بدفئها فى الأجساد والعربات والبيوت والشوارع . كان الزحام قد خف بعض الشىء بنزول بعض الركاب فى محطات الفجالة وغمرة والدمرداش . التقت عيناى بالرجل الذى رسم الوقار على وجهه وحاول الالتصاق بالفتاة الأنيقة الرشيقة قبل أن أجلسها فى مقعدى ، فأشاح بوجهه بعيداً عبر النافذة الزجاجية المغلقة لكنه سرعان ما عاد يتأمل الفتاة الجالسة فى حسرة اكتسحت الوقار من عينيه . أما الفتاة فقد استكانت إلى مقعدها وقد وضعت حقيبتى على ساقيها فى امتنان واضح .

أما السائق فقد انتهز خلخلة الزحام على يمينه لينظر إلى الركاب فى تحد كلما وقف فى محطة وكأنه يتربص بأى منهم لعله يفتح فمه بكلمة معلقاً على قيادته التى تجمع بين البطء والتهور فى مزيج غريب ، لكن يبدو أنهم تجنبوه تماماً واستسلموا للأمر الواقع ، وليكن ما يكون . فلن يبلغوا مقار أعمالهم إلا فى اللحظة التى كتبت لهم ، وإذا كان هناك أى خصم أو جزاء سيوقع عليهم لتأخرهم عن الوصول فى الميعاد ، فلن يرفع عنهم حتى لو طار الأتوبيس فوق الشوارع والبيوت ، إذ يبدو أن إرادة الإنسان قد تخلت تماما عن دورها فى مواجهة القدر الذى لا فكاك منه . وهو قدر لا يتعلق بمصائر الشعوب وملاحم الوجود بقدر ما يرتبط بعمليات الحياة اليومية وفى مقدمتها عملية ركوب الأتوبيس والذهاب إلى العمل .

بدا السائق وكأنه اغتاظ من تجاهل الركاب له ، فانطلق فجأة بالأتوبيس كما لو كان مراهقاً طائشاً يقود سيارة أمه الصغيرة ، ويتسلل بها بين السيارات والمشاة غير عابئ باحتمالات التصادم والخطر الذى يهدد حياة الآخرين . تبادل الركاب نظرات التعجب والاستنكار ، فى حين تجرأ بعضهم وأحدث صوتا بالشفاة كمص الليمون لكنهم التزموا الحذر والصمت إلى أن توقف فجأة فى محطة العباسية فأوشك بعض الواقفين على السقوط لولا تمسكهم بمقبض السقف المعدنى .

كان أحد الواقفين على وشك أن يفتح فمه قائلا :

– ما هذه المسخرة ؟ !

أو شيء من هذا القبيل لكن سرعان ما تقدم أحد الضباط الذين يتناثرون فى الميدان آمراً السائق :

– بعد عبور النفق قف بمحازاة الرصيف عند باب ٦ ولا تتحرك إلا عندما نأذن لك !

ضرب السائق تعظيم سلام :

– تمام يا فندم !

تحرك الضابط مشيراً لبعض الأتوبيسات الأخرى فى حين نظر السائق إلى الركاب متشفياً :

– هل يستطيع أحدكم أن يفتح فمه بكلمة الآن ؟ !

لم يستطع الراكب الأنيق المضروب عند بداية الخط سوى أن يتساءل فى إحباط واستسلام كاملين :

– ولماذا سنتوقف ؟ !

أشعل السائق سيجارة والتشفى يتساقط من بين شفتيه .

– أمامك البيه الضابط .. انزل اسأله !

عاد إلى إطراقة رأسه على شكل قمة بركان خامد فى حين انحرف الأتوبيس يساراً ليعبر النفق ، والراكب المستغرق فى النوم يستيقظ ليقول :

– يا مستعجل عطلك الله !

لم يعلق أحد لكن المرأة السمينة الملتحفة بالملاءة السوداء صاحت فجأة :

– يا نهار أبيض .. وابنى ؟ ! ألن أعرف عنه شيئاً ؟! أين باب ٦ ؟ ! أنا فى عرضكم !!

نهرها الكمسارى برقة :

– ماذا جرى لك ؟ ! ألم تسمعى حضرة الضابط ؟ ! من حسن حظك

باب ٦ هو نهاية الخط اليوم على ما يبدو !

- ربنا يسترك يا بنى ! نحن غلابة على باب الله !

عند الأسوار الحجرية العالية للمعسكرات توقف رهط من الأتوبيسات واللوريات التى تجاوزها الأتوبيس ليقف أمامها بالقرب من بوابة واسعة تناثر عندها رجال الشرطة العسكرية . هبط السائق ومعه الكمسارى الذى قال للمرأة السمينة ذات الملاءة السوداء :

- انزلى هنا يا ست ..

ثم أشار إلى البوابة الواسعة :

- باب ٦ ..

كان المجندون قد انطلقوا كالسهام المارقة من باب الأتوبيس وفى أعقابهم جرت المرأة أذيالها وهى تدعو للكمسارى بالسلامة لتصل إلى رجال الشرطة العسكرية سائلة عن ابنها . أطلق السائق فى وقفته على الرصيف دفعة دخان كثيفة من أنفه وفمه وهو ينظر فى تشف إلى الركاب الجالسين فى يأس واستسلام خلف النوافذ الزجاجية المغلقة فى انتظار ما تأتى به الأقدار الغامضة .

كان جنود البوليس قد اصطفوا كتماثيل على جانبى الطريق ، بين الواحد والآخر مسافة لا تزيد على ثلاثة أمتار فى حين انطلقت بعض السيارات السوداء والموتوسيكلات التى يركبها ضباط فى غاية البهاء والرواء ، فأغلق الشاب مجلة « الشبكة » وطواها فى يسراه ليتابع الموقف من النافذة .

لم يتبق من الركاب الواقفين سوى ثلاثة بما فيهم أنا . كانت أرضية الأتوبيس مغطاة ببقايا أتربة ورمال وتذاكر ممزقة وقصاصات صحف . علق الرجل الأصلع ذو النظارة السميكة :

- رحم الله أيام أبو رجيلة .. كانت الأتوبيسات تشف وترف !

لم يكن الراكب إياه قد عاد إلى استغراقه فى النوم ، فلم يسند رأسه إلى زجاج النافذة بل سارع إلى سؤال الرجل الأصلع :

- وهل كانت أيام أبو رجيلة أحسن ؟ !

سارع الرجل إلى الرد دون أن يلتفت إلى مصدر السؤال :

– أبداً .. أبدا .. كان يستغل الركاب ويمص دمهم .. بعض قصاصات من الورق على أرضية الأتوبيس لا تهم طالما أن الشعب يملك وسائل الإنتاج ويمسك مصيره بيده !

صاح فلاح عجوز كان يجلس فى آخر مقعد وسعال السيجارة يقطع أنفاسه المبهورة وينبض بعروقه النافرة فى عنقه :

– حفظ الله لنا ثورتنا المباركة .. لولاها لكنا الآن عبيد الأرض كما عاش أجدادنا وأجداد أجدادنا !!

خرجت من تأملاتى المتتابعة على خاطر أزعجنى :

– بماذا سأعلل تأخيرى لناظر المدرسة وهو الذى يضرب بى المثل فى الالتزام بالمواعيد والحرص على النظام ؟ ! خاصة وأن المدرسة ذات نظام حديدى .. فهى المدرسة التى يتعلم فيها أبناء الرئيس عبد الناصر والمشير عامر وغيرهما من قادة الثورة ؟ !

ثم استرحت لثقة الناظر الكبيرة فيما سوف أقوله له ! وسأرحب بأى عقاب ينزله بى لأننى سأنزل بعد اليوم من بيتى قبل السادسة صباحاً حتى لو بلغت المدرسة قبل دق الجرس بأكثر من ساعة ! كيف أفيد تلاميذى من الدروس التى ألقيها عليهم وأنا نفسى لا أستفيد من الدروس التى أمر بها ؟ !

فجأة قفز المدرس ذو القوام النحيل والشعر الأكرت كمن لدغه عقرب . ألقى بنفسه إلى خارج الأتوبيس وأوشك على العدو . لم يندهش أحد فقد قالت النظرات إنه يريد أن يصل إلى مدرسته عدواً ، قبل أن يضيع اليوم بأكمله . فليمنحنا الله الصحة والعافية . فليس هناك وسائل للمواصلات أضمن من أقدامنا ! أدامها الله نعمة وحفظها من الزوال ! وفى الحال احتل أحد الواقفين مكانه وهو يرخى ساقيه المشدودتين !

أشعل الممرض سيجارة بأصابع مرتعشة وظل ينفث فى سحابات ملأت الأتوبيس . استنشق جاره الدخان على مضض دون أن ينبس ببنت شفة .

فالرجل مهدد بقطع عيشه !

مال الراكب الباسم على جاره الذى يبدو أنه صديقه الحميم إذ أنهما لم يتوقفا عن تبادل الحديث بطول الطريق :

– هل سمعت آخر نكتة ؟ !

نهره بنظرات جادة لكن الراكب لم يتوقف عن هزله :

– ذات مرة صعد راكب ليجلس على أحد المقاعد ويطلق زفرات حارة وتنهدات وتأوهات حارقة فإذ بجاره فى المقعد يقول له بمنتهى العصبية :

– إذا كنت ستتكلم فى السياسة .. ابعد عنى .. أنا فى عرضك !

ضحك الراكب الهازل ضحكة مقتضبة إذ أن جاره لم يتجاوب معه بل تظاهر أنه لم يسمعه على الإطلاق ، فى حين كان الراكب المتناوم يحاول فى استماتة أن تلتقط أذناه ما أضحك الرجل لكن المسافة بينهما لم تكن تسمح بالالتقاط !

كان دخان السجائر فى الأتوبيس يبدو وكأنه أبخرة الضيق والحنق على وشك أن تفجر النوافذ الزجاجية المغلقة لتنطلق هنا وهناك بلا هدف ، فى حين كان السائق مستمتعا بالتريض على الرصيف واستقبال الهواء الطلق المنعش !

فجأة فتح الرجل الأنيق المضروب عند بداية الخط حقيبته وأخرج منها راديو ترانزيستور وهو يلمح بفخر نظرات الإعجاب الموجهة إلى الجهاز العجيب الصغير الذى لم يدخل مصر إلا منذ عامين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، خاصة مع الذين قاموا برحلات لقطاع غزة وعادوا بما يسيل له اللعاب من أجهزة وسلع مستوردة من كل أصقاع المعمورة !

أدار الرجل مفتاح الراديو فجاء صوت المذيع رصيناً وقوراً برغم حماسه المتدفق :

– يا أبطال صرواح ونجران وجيزان .. يا من تخوضون معركة التقدم والاشتراكية .. والوحدة والديمقراطية .. والقومية العربية .. يا من تقهرون خفافيش الرجعية والدجل والتخلف والجهل والانهزامية وتردونها إلى أوكارها

بين شقوق الأرض وكهوفها .. يا من تحملون مشاعل الحرية تبددون بها دياجير الظلام الجاثمة على روابى اليمن الحبيب منذ العصور الوسطى .. يا من تضعون أرواحكم على أكفكم من أجل مستقبل مشرق للعروبة من الخليج إلى المحيط .. اضربوهم بلا رحمة .. لتردد الروابى والتلال والأكمة قعقعة مدافعكم .. انثروهم بوابل قنابلكم المنهمرة من طائراتكم كالسيل ..فليس لهؤلاء حق الحياة فى عصر الشعوب التى تكتب تاريخها الآن بدمائها بعد أن تخلصت من الطغاة الجاثمين على أنفاسها !

كان الرجل الأنيق على وشك أن يدير مفتاح الراديو لكنه نظر حوله وخلفه وعدل عن المحاولة ليستمر صوت المذيع الهادر المتدفق :

– وها هو المشير عبد الله السلال قائد ثورة اليمن المظفرة يقوم بزيارة لشقيقه بطل ثورة العروبة من الخليج إلى المحيط الزعيم البطل جمال عبد الناصر ليتشاور مع سيادته من أجل مزيد من دعم ثورة اليمن التى دكت قلاع الرجعية وجعلتها هباء منثوراً .

ثم صدحت الموسيقى العسكرية بمارشات حماسية أعقبتها أغنية عبد الوهاب : دقت ساعة العمل الثورى !

من عمق الشارع تصاعدت صفارات موتسيكلات تعلو وتهبط ثم تتصاعد فأسرع ركاب الجانب الأيسر من الأتوبيس إلى فتح زجاج النوافذ وإخراج الرءوس وإدارة العيون بحثاً عن مصدر الصفارات التى أوشكت أن تصم الأذان مع انطلاقة الموتوسيكلات التى مرقت الواحد بعد الآخر !

انشقت الأرصفة عن بشر من كل الأعمار كانوا على وشك تخطى الرصيف إلى الشارع لولا رجال الشرطة الذين لوحوا بعصيهم . شدت العيون جميعاً إلى الاتجاه الذى تمرق منه الموتوسيكلات السوداء اللامعة ، وسرعان ما بدا موكب طويل مهيب من الموتوسيكلات التى تعكس وميض الشمس برغم سوادها وتسير فى تؤدة على الجانبين بقيادة جندى وقور ذى شارب مبروم على موتوسيكل يتهادى فى المنتصف كعروس يوم زفافها . وسرعان ما التهبت الأكف بالتصفيق سواء على الرصيف أو من فتحات نوافذ الأتوبيس للموكب

المهيب .

ثم تحول التصفيق إلى هتاف دوت به الحناجر من كل حدب وصوب كطلقات الرصاص وسط ضجيج الزفاف :

– عاش جمال عبد الناصر .. عاش جمال عبد الناصر ..

وتحولت نوافذ الأتوبيس إلى فوهات مدافع لإطلاق الهتافات المتفجرة مع التلويح بالأيدى . وأوشكت الأصوات على أن تبح ، مع ترقرق الدموع فى العيون والسيارة السوداء الفارهة ذات الزجاج الداكن تتهادى وهى تقل الرئيس جمال عبد الناصر وإلى جواره المشير عبد الله السلال .

كان المشهد كالحلم العابر . لم يصدق أحد أنه قد كتب له أن يرى جمال عبد الناصر هكذا بمنتهى البساطة ، وهم الذين كانوا منذ دقائق يشكون مر الشكوى من تفاهات الحياة اليومية : تأخير وخصم وجزاء وإنذار بالرفت وسائق يتسكع بالأتوبيس ! كل هذا تبخر فى لحظة وقوع العيون على عبد الناصر . صحيح أنهم لم يروا منه سوى لمحة خاطفة : شموخ أنفه أو وميض عينيه أو سحر ابتسامته أو مشيب فوديه ، لكنهم رأوه !!هذا الساحر الذى يشع بجاذبيته أينما حل !! كلنا فداء جمال !

انقشع الموكب كسحابة صيف تدفقت خلفها السيارات المتوقفة وهى تطلق أبواقها فيما يشبه المهرجان الموسيقى . أما فى داخل الأتوبيس فقد جلس الركاب فى ارتياح مصحوب باسترخاء يكاد يصل إلى حد النشوة . وسرعان ما دارت محركات الأتوبيسات المتراصة إلى جوار الطوار إيذانا بالانطلاق ، ومعها أتوبيسنا الذى قفز سائقه فى رشاقة إلى مقعده ليدير محركه وينطلق بخفة الغزال .

كان المس الذى أصاب الركاب عجيباً ! قال الرجل الأنيق وهو يعيد الراديو الترانزيستور إلى حقيبته :

– أصبحت مصر حديث العالم كله على يدى هذا البطل !

أما ابن البلد ذو الجلباب الرمادى واللاسة البيضاء فعلق بلهجة انتصار تمثل فى نبراته المدوية :

– من حظى أن أراه شخصياً !! لم أره من قبل !! صحيح المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين !

فى حين قال الشاب الذى ألقى مجلة « الشبكة » على ساقيه :

– أروع شىء أننى من جيل الثورة .. عندما قامت كان عمرى عشر سنوات ..

سعل الفلاح العجوز وهو يطفئ السيجارة بنعل حذائه المرتق :

– ألف حمد وألف شكر لك يارب .. رأيت الريس جمال قبل أن أموت !

كان الرجل المتناوم يتابع الحديث بعينيه الجاحظتين وكأنه يطبع فى ذاكرته ما يسمع حتى لا ينساه ! تلفت أمامه وخلفه ويساره لعله يتفحص الوجوه أيضا والسعادة تسيل من نظراته التى التقت ببريق عجيب فى عينى الممرض الذى قال :

– ده ما جابتوش ولادة !

نظر السائق إلى الركاب غير عابئ بالطريق أمامه :

– جعل الفئران تدخل الشقوق !

علق الرجل الأصلع ذو النظارة السميكة :

– لولاه .. لما استمرت ثورة اليمن يوماً واحداً .. دفاعنا عن ثورة اليمن هو دفاع عن الثورة الأم .. قصدى ثورة يوليو المباركة .. فمعركة التحرير لا تتجزأ !

كنت على وشك أن أضيف بدورى والأتوبيس يخترق مشارف مصر الجديدة أننى أعمل فى مدرسة أبناء عبد الناصر التى تقع فى ميدان ترايامف ومعناه النصر أيضاً ، لكننى تراجعت فى اللحظة الأخيرة . فربما لا يصدقنى أحد فأبدو فى وقفتى أمامهم كاذباً يدعى شرفاً كبيراً لا يحصل عليه أحد بهذه البساطة ! اخترق الأتوبيس مصر الجديدة والهواء المنعش البارد يلفح الوجوه التى استسلمت له تماماً . لم يفكر أحد فى غلق النوافذ الزجاجية التى ظلت مفتوحة منذ مغادرة باب ٦ . كان الصمت السعيد يسرى بين من تبقى من

الركاب وقد بدا فى العيون صدى الذكريات التى ستبقى محفورة فى الوجدان ليحكيها الآباء للأبناء ،والأبناء للأحفاد .

بلغ الأتوبيس محطة ترايامف فأخذت حقيبتى من الفتاة الرشيقة شاكرًا كرمها ، فجاوبتنى بابتسامة هبطت على أثرها وأنا أكاد أجرى فى عبورى للميدان إلى شارع المدرسة حيث وجدت أربعة أو خمسة من الزملاء يهرولون ، فلحقت بهم دون تبادل كلمة واحدة سوى تحية مقتضبة حتى بلغنا باب المدرسة فإذ بالبواب يكاد يلطم خديه صائحا :

– البيه الناظر فى انتظاركم .. عمال يبرطم من ساعة جرس الحصة الأولى !

تبعنى الزملاء فإذ بالناظر يقف عند باب مكتبه ويصيح فى المشرف ببعض تعليمات لم تتضح نبراتها ، ثم التفت إلينا ليسرع بكلمات لاهثة موجهة إلى أنا على وجه الخصوص فى حين احتمى الزملاء بى ، باستثناء أحدهم ، فقد وقف على انفراد فى شموخ واضح :

– حتى أنت وأنا الذى أقول عنك أنك قدوة فى الانتظام والالتزام ؟ !

فى كلمات لاهثة قليلة قصصت على الناظر السبب فى تأخرى فإذ بأساريره تنبسط وتنفرج إلى حد السعادة ، ويتراجع إلى مكتبه ليجلس مسترخيا فى مقعده ، ونحن فى أعقابه وقد بدت السعادة على وجوه بعضنا للسبب الذى هبط من السماء عليهم دون أن يشاركوا فيه ! فالموكب لم يتسبب فى تأخير المرور فى كل شوارع القاهرة ، لكننى لاحظت وهو يختلس نظرات حائرة من حين لآخر للزميل الذى وقف على انفراد فى شموخ غير مريح ! لم يكن يرتاح له ومع ذلك لم يحاول أن يمسه بكلمة من قريب أو بعيد حتى فى حالات وصوله متأخراً .وكذلك كان بعضنا يتحاشاه فى حين كان البعض الآخر يحاول كسب وده .فقد اعتاد أن يسأل أسئلة غريبة أو غامضة وفى أوقات لا تستدعى مثل هذه الأسئلة ! وأحيانا أخرى كان يندس بيننا فجأة وينصت إلى كل كلمة تقال مكتفياً بنظراته الناضحة بالود والتعاطف دون أن ينبس ببنت شفة ! وفى الأيام الأخيرة سرت بيننا همسات تلمح إلى أن خاله من الضباط الأحرار الذين حملوا رءوسهم على أكفهم ليلة الثالث والعشرين من يوليو !

نهض الناظر وهو ينظر إلى ساعة يده وبدا كما لو كان على وشك أن يأمرنا باللحاق بفصولنا لكنه استدرك الأمر والحماس يشع من عينيه وهو يطلب منى فى نشوة عارمة :

– مناسبة تاريخية عظيمة كهذه لا يمكن أن تمر بنا هكذا مر الكرام !

ثم ضغط على نبراته وهو يركز نظراته على زميلنا الغامض غير المريح :

– أريد أن أعرف كل شىء بالتفصيل منذ اللحظة التى وقعت فيها أعينكم على سيادة الرئيس حتى مر الموكب ! فكم كنت أود أن أكون معكم !

وشرعت فى سرد اللحظات التاريخية بتفاصيل تجمع بين الواقع والخيال ، فى حين عاد الناظر للاسترخاء المنتشى فى مقعده برغم دقات جرس نهاية الحصة الأولى !

* * *

عيد ميلاد الثورة المجيدة

عندما استرخى الزعيم الأفريقى الكبير فى فراشه فى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، لم يزر النوم جفونه المتغضنة ، ليس لأن غداً هو عيد ميلاد الثورة المجيدة التى أشعل أوارها فى الأحراش والوديان والجبال والتلال والكهوف منذ ثلاثين عامًا بالتمام والكمال ، وأقلق بها مخادع الاستعمار وأطار النوم من جفونه حتى أجبره فى النهاية على الجلاء ، وحقق استقلال بلاده فى . وقت كانت أفريقيا تسمى فيه القارة السوداء المظلمة ، ولكن لأن السنوات القليلة الأخيرة شهدت تحولا غير مفهوم من عبادته كرمز للاستقلال والتحرر والكرامة ، إلى تمجيد له ، إلى احترام لشخصه المهيب ، أى اعتراف بفضله وجميله ، إلى التشدق بالديمقراطية التى لا يمكن أن تقوم للحكم الحديث قائمة بدونها ، إلى التلميح بأن لكل عصر رجاله وليس هناك زعيم أبدى ، إلى التغاضى عن مشاعل التحرير التى أضاءت أرض الوطن منذ ثلاثين عاما ، إلى اعتبار الثورة مرحلة تاريخية تجاوزتها الأحداث وآن لها الأوان أن تسترخى فى متحف التاريخ لتزورها الأجيال الجديدة وتشاهد ملامحها المتغضنة ، إلى نكران الجميل ، والسخرية من أمجاد الثورة بل واعتبارها كأنها لم تكن ، إلى رفض الربط بين الثورة والوصاية على الشعب ومستقبله ، وهى التى لم تقم إلا من أجله ! لقد وضع روحه على كفه منذ ثلاثين عاماً من أجل هذا المستقبل ، فهل يعقل أن تتحول هذه الملحمة المبهرة الخالدة عبر الزمان إلى حادثة مستهلكة مملة لا تقابل إلا بالتثاؤب ومط الشفاه والتلويح بالأيدى والرغبة فى الإسراع إلى عمل شىء مفيد بدلا من إضاعة الوقت فى الاستماع إلى أساطير الأقدمين ؟ !

لكن الصورة ليست معتمة إلى هذا الحد ! فقد باتت العاصمة غارقة فى طوفان من أنوار العيد ! خطوط النور الأخضر والأصفر والأحمر تحيط بجدران المؤسسات والمبانى الحكومية وشركات القطاع العام ، ومصابيح الطرقات

والشوارع وضفاف الأنهار بدت أكثر تألقاً ، ورصعت الميادين العامة بأسلاك متفجرة بأضواء المصابيح الصغيرة الملونة ! لا تعى الأجيال الحالية الصورة التى كانت عليها العاصمة يوم اشتعال الثورة ! الأكواخ البدائية ، والطرقات المظلمة المتربة الضيقة الملتوية ، والحيوانات المفترسة التى يمكن أن تتسلل إليها فى أى وقت من الأحراش المحيطة ، والأمراض التى تفتك بأهل البلاد ، والوجوه البيضاء أو الحمراء الكالحة التى تسير فى غطرسة وكأنها امتلكت البلاد إلى الأبد دون أن تمتزج بأهلها ، فهى وجوه مغلقة على نفسها فى أندية خاصة حول موائد القمار والويسكى والسأم من الحر والرطوبة والذباب والبعوض ، والرغبة فى عودة سريعة إلى أرض الوطن الحبيبة أو تولى منصب جديد !!

لا بد أن تذكر الأجيال الجديدة هذه المآسى والمحن حتى لا تنسى فى غمرة التيارات الوافدة ، حقيقة استقلالها وقيمته فتفرط فيه دون أن تدرى ! ولذلك قرر أن يكون خطابه غداً فى عيد ميلاد الثورة المجيدة مضيئا لجوانب هذا الموضوع المصيرى الخطير ! إن الأجيال الجديدة تظن أن الاستقلال شىء مفروغ منه وحقيقة طبيعية راسخة كالجبال والأنهار والتلال والأحراش ، وتنسى أيام الكفاح وليالى السجن وأرواح الرفاق الذين ضحوا بها على مذبح الاستقلال ، وكان يمكن أن يكون واحداً منهم ، لولا حسن حظ بلاده فامتد عمره حتى تجاوز السبعين ، ولا يزال يتمتع بالصحة والذهن المتوثب الحاضر ، ويحافظ على مسيرة الثورة من الانحراف . فلن تجد البلاد كنزاً أثمن وأغلى من تجربته وخبرته وحنكته وحكمته . ولتقل الأجيال الجديدة ما يحلو لها ، إذ يجب أن يتسع قلب الأب لشطحات أطفاله الصغار طالما أنها لا تمس المسيرة !

لكن ما يقلقه حقا هو السكون الذى يسرى مع هبات الهواء المشبع بالرطوبة الخانقة ! صحيح أنه لا يشعر بها فى قصره المكيف الهواء الناعس وسط الحدائق الفيحاء على ضفاف البحيرة الصافية ! ومع ذلك يصيبه هذا السكون باختناق غريب ! هل هناك مؤامرة تحاك ضده فى عتمة الليل وسكون الخفاء ؟ ! إنه لا يخاف الموت فقد واجهه عدة مرات على مدى سنوات الكفاح الطويل ، وطالما استعذب فكرة الموت فداء للوطن ، بل إنه يفضل أن تغتاله يد أثيمة

أجيرة تريد بالوطن شراً من أن تدير له الجماهير ظهرها فى استخفاف واشمئزاز ! فى السنوات الأولى بعد الثورة ، بل وحتى سنوات قليلة ماضية ، كان المواطنون فى ليلة عيد ميلاد الثورة المجيدة يظلون ساهرين فى الشوارع والميادين وحول البحيرات وعلى ضفاف النهر حتى بزوغ الفجر ، يغنون ويرقصون ويشربون ويمرحون ، فإذا ما جاء ميعاد إلقاء خطابه عند الظهر يتجمعون فى ساحة ميدان قصر الرئاسة ، آلافا مؤلفة بعيون شاخصة ، وحناجر هاتفة ، وطبول مدوية ، وأقدام راقصة ، حتى يبدأ الخطاب فيسود الصمت لالتقاط كل نبرات الزعيم وليس مجرد كلماته . وبرغم سهر الليل فإن النظرات ذات الوميض الحاد لم تكن تعرف النعاس أو الغفلة . أما فى السنوات الأخيرة فقد بدأت الآية تنقلب ، السكون يسرى فى الليل والضجة تعلن عن نفسها بين الحين والآخر حتى فى أثناء إلقاء الخطاب !

لكنه يلتمس العذر لأجيال الشباب المغرور بها ! فخصوم الثورة ما زالوا يتربصون بها لعلهم يصيبونها فى مقتل ! وفى مقدمتهم ذلك الروائى الملعون الذى ألقى به أخيراً فى السجون حتى يعرف حدوده ولا يتجاوزها ، بعد أن سمح له ولأمثاله بحرية النشر فظنوا أن الحرية لا تعنى سوى الفوضى ! فكان لا بد له من وقفة معهم ، وإن كان قد ندم أشد الندم على سماحه بنشر روايته « فتيان الثرثرة » ثم اضطراره إلى إصدار أمره بمنعها وسحبها من السوق بعد أن تخاطفتها الأيدى ، وما زالت تتخاطفها فى الخفاء ، وتنسج حولها من الأساطير ما يفوق أثرها الحقيقى !

ابتسم الزعيم عندما خيل إليه ان الهواء قد حمل إلى أذنيه دقات طبول وأغانى تردد اسمه كما كانت تفعل فى الماضى ، لكنه سرعان ما تململ فى فراشه الحريرى الوثير عندما لم يسمع سوى رجع السكون . حاول ن يرخى جسده المشدود لكن خيوط السكون شدته مرة أخرى .ود لو نام وحلم بالحناجر الهاتفة ، والطبول المدوية ، والعيون الشاخصة ، والأقدام الراقصة ، والأغانى المبهجة ، لكن النوم أصر على جفائه ليلة عيد ميلاد الثورة المجيدة !

لقد قرأ رواية « فتيان الثرثرة » بنفسه واعتبرها خيانة وطنية يستحق مرتكبها

الإعدام . فهو ليس ضد الفن أو الأدب أو الخيال أو الجمال ، لكن أن يجعل من رئيس بلاده بطلا لقصته حتى يسخر منه أو ينتقده من طرف خفى أو علنى ، والكل يعرفون أنه لا يقصد سواه ، فهذا لا يمكن أن يقبله بأية حال من الأحوال ؟ ! لأنه بهذا يعلم الأجيال الجديدة كل القيم الفاسدة : نكران الجميل والاستخفاف بالنظام ومهابة الأمة أو الأم التى ستجد أبناءها يسخرون منها وينفضون من حولها ! فهل هذا هو جزاء الأم التى منحتهم الحياة نفسها ؟ !

هذا هو ما يعلمه هذا الروائى المريض للأجيال الشابة التى يفترض فيها صحة الجسم والعقل والوجدان ! صحيح أن بطله كان رجلا فاضلا اختار أن يعلم الأجيال الجديدة حروف كلمات الصدق والفضيلة وقصائد حب الوطن . كان مزهوا بذلك ، وعندما أصبح ناظرا لمدرسة ابتدائية غمره الشعور بالرضا ، لكنه أدرك بعد فترة أن الكفاح فى الأحراش وبين المستنقعات وفى الكهوف أجدى من مجرد تعليم الأطفال والصبية . وخاض حرباً ضروساً ضد الاستعمار حتى حقق مع رفاقه الاستقلال لبلاده ، وتم اختياره وزيراً فى أول وزارة بعد الاستقلال ثم نجح فى تكوين جبهة موالية له استطاع أن يقفز بها إلى قمة السلطة وظل جاثما على أنفاسها حتى الآن . فقد امتلأ شراع سفينة السلطة بالرياح الفاسدة ، وجنحت بها تيارات المحسوبية ودوامات الحكم المطلق .

أما « فتيان الثرثرة » فالمقصود بهم رفاق الثورة الذين كونوا حزبها معه . لكن الروائى الذى يدعى الثورية ادعى فى التحقيق الذى أجرى معه أنه لم يقصد بروايته بلده على وجه التحديد وإنما قصد بفصولها المأسوية الكابوس المروع الذى جثم على صدر دول أفريقية عديدة . لقد رفعوا أعلام الاستقلال الخفاقة ، لكنهم لم ينسوا فى الوقت نفسه أن يقيموا نصباً كئيباً لخيال المآتة حتى يروع طيور الحرية ! هل هذا هو جزاء الرفاق وهو فى طليعتهم ؟ ! كم بشر تلاميذه الصغار بالحرية والطعام أيام عمله بالتدريس ؟ ! كم لقن زملاءه فى السجن مبادئ الكفاح والتحرير والكرامة والكبرياء ؟ ! كم قاد رفاقه من الكهوف عبر الأحراش والمستنقعات وصدورهم مكشوفة لتلقى الرصاص فداء للوطن ؟ ! ثم فى النهاية يصبح مجرد خيال للمآتة يروع طيور الحرية كما يقول هذا

صحيح أن حياة بطل الرواية ليست مطابقة تماماً لحياته ، لكنه يكاد يشعر بأنفاسه تتردد بين صفحاتها برغم ادعاء الروائى أنه لم يقصده شخصيا حتى يهرب من العقاب الذى يستحقه ! فقد دلل على ادعائه بأن أحداث الرواية يمكن أن تنطبق على كل الزعماء الأفارقة الذين أطيح بهم فى انقلابات عسكرية أو شعبية : كوامى نكروما فى غانا ، وأحمد سيكوتورى فى غينيا ، وموديبو كيتا فى مالى ، وعيدى أمين فى أوغندا ، وهيلا سلاسى فى أثيوبيا ، وجعفر نميرى فى السودان ، ويعقوب جوون فى نيجيريا ، والحبيب بورقيبة فى تونس ، وأحمد بن بيللا فى الجزائر ، وحسين حبرى فى تشاد ، وسياد برى فى الصومال ، ومانجستو هيلا مريام فى أثيوبيا وغيرهم . لكن المحقق كان معه فى منتهى الحسم مؤكداً له أن بطل روايته لا يزال فى السلطة منذ ثورة الاستقلال فى حين أن من تبقى من الزعماء الإفريقيين مثل ليبولد سنجور وجوليوس نيريرى قد آثروا ترك السلطة من تلقاء أنفسهم لأهداف مثالية وآفاق إنسانية سيطرت على تفكيرهم ، أى أنه لم يتبق على قمة السلطة منذ عهد الاستقلال سوى سيسيكو موبوتو فى زائير وكينيث كاوندا فى زامبيا ، فأيهما يقصد ؟ ! لكن الروائى لزم الصمت مكرراً بأنه لم يقصد زعيما أفريقياً معينا لأن روايته تعالج أعراض الشيخوخة التى دبت فى أوصال الثورة الأفريقية بصفة عامة !

تململ الزعيم فى فراشه فنهض فى محاولة لطرد الملل والقلق . نظر خلف النافذة الزجاجية المحكمة الإغلاق ليرى البحيرة المترامية الأطراف تقبل بضفافها اقدام القصر المنيف وق انعكست الأضواء المتلألئة على صفحتها الساكنة ! فى الأعوام الخوالى كانت القوارب المتدفقة بنشوة الاحتفال بعيد ميلاد الثورة المجيدة تكاد تغطى صفحتها ، لكن رفاق الحزب ورجال الأمن نصحوه بإغلاقها فى وجههم وبناء سور شامخ يضمها إلى القصر حتى يضمنوا سلامته من أى اعتداء ! وبرغم السور العظيم الذى أقيم ظلت مظاهرات الفرح تجوب الشوارع والطرقات وتتربع فى الميادين والساحات حتى بزوغ فجر عيد الثورة المجيدة ! لكن السكون يلف الآن كل الأشياء برداء داكن كئيب ! حتى الكلاب توقفت

عن النباح والقطط عن المواء والبلابل عن التغريد !

عاد إلى فراشه ليرتمى عليه ! كان يشعر بوحدة موحشة قاتلة وود لو قام بفتح باب الغرفة ليتجاذب أطراف الحديث مع الحارس الشخصى الساهر خلفه ، لكنه طرد الخاطر الذى ترك مكانه لذكريات الماضى ! كان يظن أن رحيل نجوم أفريقيا المتألقة مثل جمال عبد الناصر وهوارى بومدين وأنور السادات وهيلا سيلاسى وغيرهم سوف يغمره بالأضواء العالمية بصفته الوحيد تقريباً ، الذى امتد به العمر ليواصل عطاءه لبلده ولأفريقيا وللعالم أجمع ، لكن سرعان ما انحسرت الأضواء عن أفريقيا ولم يعد يسمع عنها أحد خبراً إلا وكان مرتبطا بمجاعة أو حرب أهلية أو معارك قبلية أو انقلاب عسكرى ! ومع ذلك لا يحمد بعض مواطنيه الله على الاستقرار الذى أفاء به عليهم فى ظل حكمه المديد ! يبدو أنهم لن يدركوا قيمة الخير الذى ينهلون منه إلا إذا فقدوه مثل باقى جيرانهم المحيطين بهم من كل الحدود !

يدعى الروائى المزيف أن الشعب يريد التعددية الحزبية ، ويهاجم من يسميهم « فتيان الثرثرة » الذين رفعوا لافتات الحزب الواحد ، وأفرطوا فى الكلام عن الوحدة والتوحيد دفاعاً عن إنجازات وهمية على الورق ، ولم يجادلهم أحد كثيراً ، ذلك أن خيال المآتة كان ينذر الجميع بسوء العواقب ، ويا طيور الحرية اغربى عن وجه حكماء الحزب فإنهم يثرثرون !! هل الاستقلال والحرية والاستقرار والأمن والهدوء إنجازات وهمية على الورق ؟ ! يا لجحود البشر المغرمين بعض الذراع التى تمتد لانتشالهم من الذل والمهانة والضياع والاحتلال والاستعمار !! قد تكون هناك بعض المشكلات فى الطعام ، لكنها مشكلة يمكن حلها بسهولة فى ظل الاستقرار والأمن والهدوء ، أما فى غيابها فلابد أن تصبح كارثة رهيبة بمعنى الكلمة ، ومن هنا كان حرصه المستميت على الاستقرار والأمن والهدوء ! حتى لا يتحول الوطن إلى فردوس مفقود !!

يدعى الروائى الخائن أن حكماء الثرثرة لم يعثروا على الفردوس المفقود طوال رحلتهم الطويلة فى سراديب الحكم المطلق ، وأنهم لم يفزعوا عندما وطأت أقدامهم أجساد الجوعى فى الطرقات ، فقد استعصى عليهم إدراك

الواقع المفزع فى زمن المجاعة الأفريقية . ويسخر منهم بأنهم يكفيهم إنجازا أن لافتات الحزب الواحد لا تزال معلقة على جدران ثمانى وثلاثين دولة من خمس وأربعين دولة فى أفريقيا السوداء .

ظن هذا الروائى التافه السخيف أنه سيصبح بروايته هذه زعيما تلهث الملايين خلفه ، وأن الشعب سيثور عن بكرة أبيه عندما يلقى به فى السجن ، لكنه ملقى الآن كالكلب الأجرب فى زنزانته دون أن يحرك أحد ساكنا . لا أحد مهما كان داهية يستطيع أن يزيف وعى الجماهير ، خاصة إذا اتصل الأمر ببطلهم القومى الذى جاءت به الأقدار فى لحظة مصيرية ليقود الكفاح حتى بزوغ فجر الاستقلال وطلوع نهار الحرية !

ما أروع الرفاق المحيطين به من كل جانب ! بعضهم رافقه وزامله أكثر من ثلاثين عاماً ولا يزال على ولائه ووفائه ! والبعض الآخر من أبناء الرفاق والزملاء الذين رحلوا عن هذا العالم بعد أن خدموا فى معيته على أفضل وجه ! إن كلماتهم تقطر الحكمة صافية ! ولا غرو فى هذا فإن الكفاح والنضال والخبرة والتجربة والمحن كفيلة بتوليد الحكمة من بنات أفكارهم ومحاسن كلماتهم دون خوف أو تردد أو حرج ! حتى عندما بدأ هذا الزمن الغريب فى التحول بانهيار نظام الحزب الواحد فى أوروبا الشرقية ، أعلنها أحد هؤلاء الحكماء مدوية « إنها الديمقراطية اللعينة بدعة هذا الموسم . وهى ليست سوى الفوضى متسربلة بأردية الحرية . والطريق إلى الجحيم ممهد بالنوايا الطيبة . فلنر إلى أى سبيل ستقودهم هذه البدعة اللعينة » ، فى حين قال حكيم آخر مستنكراً فى سخرية مريرة : « إن المنادين بالديمقراطية مجرد فئران مذعورة تريد أن تحتمى بأحضان القطط السمان لعلها تتمسح بها وتقلدها فتبدو بنفس حجمها ووزنها » .

ومع ذلك فإن الروائى المزيف يدعى أن رياح الديمقراطية الصاخبة فى الشوارع الأفريقية لم تعبأ بكلام الحكماء القدامى ، فهو ليس سوى ثرثرة فارغة . فإذا كان الحكماء يثرثرون ، فما الذى فعله هذا الثرثار الدعى بروايته الفارغة ؟ ! صحيح أن صحيفة الحزب ردت عليه وأفحمته حتى لا يخدع الشباب الذى قد يساقون وراء معسول الألفاظ ، لكن كلماته وجدت صدى

عند بعض الشباب . هكذا كانت تقارير الأجهزة المعنية ! خاصة فى الفقرة التى ينهى بها خصم البطل الرواية بقوله :

– يا أيها المعلم القديم . يشعر المرء بالأسى من أجلك . لقد كانت قامتك مديدة بقدر احتضانك لحركات التحرر الوطنى . وقد تحملت كثيرا من أجل هذا الهدف النبيل . ولكن ما العمل الآن ؟ ! إن زمن حكماء الثرثرة فى رواق سلطة الحزب ولى وانتهى . ولم يبق سوى فضيلة الاعتراف والرحيل .. وداعاً !

يحاول التظاهر بالموضوعية . يذكر ماضى الكفاح من أجل التحرر الوطنى بالخير استعداداً للسم الذى يضعه فى العسل بعد ذلك !! يريدنى أن أعترف وأرحل كما لو كان يملك هذه السلطة ! أعترف بماذا ؟ ! وأرحل إلى أين ؟ ! كان لابد أن يعرف حدوده ! وهو يستحق ما يلقاه الآن فى السجن ! هل أنا مسئول عن المجاعة ؟ ! هل أنا الذى منعت الأمطار من النزول ؟ ! هل أنا الذى أصبت الشعب بالكسل وجعلت الإنتاج يتناقص ، والاستيراد يلتهم التصدير فلا يبقى منه ذرة واحدة ؟ ! أرسلت رجال الحزب وشبابه إلى كل أركان البلاد للتوعية وتطبيق شعارات الإنتاج والانطلاق لكن أحداً لم ينتج ولم ينطلق ! ذهبوا إلى زعماء القبائل بل وطلبوا من سحرتها إقامة الطقوس وكتابة التعاويذ التى من شأنها فك قيود الإنتاج والانطلاق ، لكن يبدو أن السحر قد فقد مفعوله أيضاً !!

ما هذه الأفكار الكئيبة المتشائمة ؟ ! أفكارك لا تناسب ليلة عيد ميلاد الثورة المجيدة التى لا توحى ولا تذكر إلا بالأمجاد والأطياف والذكريات السعيدة الرائعة التى يجب أن تكون قوة دفع لانطلاقة جديدة ! وغداً فى خطابى التاريخى سأذكرهم بها ثم أنطلق منها إلى ما يجب أن نفعله لتجديد شباب الثورة التى لا تعترف بطبيعتها بالشيخوخة حتى لو بلغت المائة والمائتين وليس الثلاثين فقط ! إن كلماتى وشعاراتى التى ترصع الميادين والشوارع والمؤسسات والدور الحكومية ، وصورى التى تحتل القلوب قبل أن تعلق على الجدران ، يجب أن تتحول إلى حقائق على أرض الواقع ! لو أن كل مواطن أصبح صورة مصغرة منى لانطلقنا إلى آفاق القرن الحادى والعشرين بسرعة سفن الفضاء !

وهذا ما سأقوله غداً ليصبح شعاراً للمرحلة القادمة من مراحل الكفاح الوطنى ! الكفاح الذى لم ولن يهدأ له أوار !

أخيرا بدأ الاسترخاء يسرى فى جسد الزعيم المشدود ، المنهك ، المتوتر ، وداعب النعاس الخفيف جفونه المتغضنة فابتسم مستسلما له وهو يتابع من شرفة الرئاسة الجماهير الغفيرة التى تهتف باسمه ، والعرق يتصبب على الوجوه السوداء اللامعة ، والأيدى تلوح بعلامة النصر ، والعيون تنطلق ببريقها بين الأجساد المتراصة لعلها تفوز برؤية لمحة منه !

غاص فى الفراش الحريرى المنتفخ بريش النعام والابتسامة تتسع على وجهه وبين شفتيه ، فاحتضن الوسادة بذراعى شاب لم يتجاوز الثلاثين وكأنه يحتضن الشعب بأسره ! كم يحب هذا الشعب ويعشقه ؟ ! عشق لن تؤثر فيه أية فقاقيع تطفو على السطح ! إن الأب لا يمكن أن يكره أبناءه مهما أغوتهم الشياطين والأرواح الشريرة ، والمعلم لا يمكن أن ينبذ تلاميذه مهما ارتكبوا من أخطاء . فارتكاب الخطأ من حقهم كما أن تصحيحه من واجبه ! تراجع النعاس عن عينى الزعيم ، والابتسامة عن وجهه ، ويد خادمه الخاص تهز كتفه فى رفق وحنو . كانت الشمس الباهرة تخترق زجاج النوافذ والستائر البيضاء والصفراء المسدلة عليها . سأل الخادم وهو يجلس على فراشه ويفرك عينيه :

– هل تأخرت فى النوم ؟ !

– لم يتبق سوى ساعة على ميعاد الموكب إلى قصر الرئاسة !

هرع الزعيم إلى ستار النافذة ليرفعه ، فوجد السيارت السوداء الفارهة تنتظم فى صف على ممر حديقة القصر ، فى حين انتظمت الموتوسيكلات خارج أسواره . لكن الشوارع المحيطة كانت شبه خالية من المارة والسيارات ! يبدو أن عيد ميلاد الثورة المجيدة لم يعد للناس سوى إجازة ينتهزونها للاسترخاء فى بيوتهم والهروب من سياط الشمس وهبات الرطوبة الخانقة ! هل سيسير الموكب الرئاسى دون جماهير تجتاح الأرصفة لتتكأكأ عليه كما كان يحدث فى الأيام الخوالى ؟ ! ماذا يمكن أن يحدث لو وجد ساحة قصر الرئاسة خاوية على عروشها ؟ ! هل يلقى خطابه على الأشجار وأعمدة الإنارة والأرصفة ؟ !

اجتاحته موجة عارمة من الكآبة وهو يتناول قطعة توست بعسل النحل ثم يرشف فنجان الشاى ! عزم على تجاوز الموجة فهرع إلى ارتداء ملابسه والحرص على أناقته كالعادة . تعطر فانتعشت روحه .خرج إلى الخميلة الخلفية ليقرأ تقارير الصباح اليومية على مقعده الهزاز ، فوجد أن كل شىء على ما يرام وأن الجماهير المنتشية بعيد ميلاد الثورة المجيدة قد هرعت إلى الساحة الكبيرة فى انتظار إطلالة الطلعة البهية عليها .

هبط على درجات السلم المرمرية وخلفه بعض رجال الحاشية الذين اسرعوا ليحيطوا به فى حين أسرع بعض الحراس لفتح باب السيارة السوداء الفارهة التى احتوته بهوائها المكيف ومقعدها الوثير وزجاجها الداكن . أما السيارات المنتظمة فى الطابور فقد ابتلعت الوزراء وكبار المسئولين الذين هرعوا منذ الصباح ليكونوا فى شرف معيته من قصر الرئاسة . دارت المحركات ليتحرك الموكب المهيب خارجا من البوابة الحديدية ، مسبوقا بأبواق الموتوسيكلات فى الشارع العريض . تناثر المتفرجون على الطوارين يسيرون أو يلوحون أو يصفقون لكن دون تكالب أو هتاف ، بل إن ابتسامات بعضهم لم تكن مريحة !

انطفأت الحمية النامية داخل الزعيم فتوقف عن رفع ذراعه لرد التحية وهفت روحه إلى الساحة الغاصة بالجماهير . وبالفعل انطلق الموكب فلم يكن هناك ما يؤخره حتى بلغ مشارف الساحة . تهللت أسارير الزعيم . كانت التقارير صادقة ومطابقة للواقع . صحيح أنه كان هناك صخب وضجيج بدلا من التصفيق والهتاف ، لكن الزحام أعاد إلى ذهنه ذكريات الأيام الحالمة .

ابتلعت البوابة الخلفية للقصر سيارات الموكب ، الواحدة بعد الأخرى . أسرع الزعيم فى خفة الشباب إلى داخل أبهاء القصر وهو ينظر من حين لآخر إلى وزرائه اللاهثين خلفه وقد عاد إليه زهوه . حتى لو تم اغتياله فى عيد ميلاد ثورته المجيدة فسيسجل له التاريخ بحروف من نور ونار أنه عاش ومات من أجل الثورة والوطن !

خرج إلى الشرفة الرخامية الفسيحة ليرفع كلتا ذراعيه تحية للجماهير التى لم تهتف ولم تصفق ومع ذلك قنع بضجيجها الذى بدا له وكأنه حالة عامة

من الابتهاج للمناسبة التاريخية . أوشك أن يلصق شفتيه بالميكروفون وهو يصيح :

– أيها المواطنون .. أيها الرفاق .. أيها الأبناء .. فى هذه اللحظات التاريخية .. فى هذه الذكرى العطرة التى نستمد منها شحنات الانطلاق إلى آفاق العصر والمستقبل ..

وإذ بالأيدى والأذرع ترتفع متعارضة ومتشابكة ومتوازية كفروع الأشجار الاستوائية ، ومنها ينطلق وابل من الحجارة والقمامة صوب الشرفة الشامخة ، فيسرع رجال الأمن لحماية الزعيم وتجنب السيل المنهمر من كل حدب وصوب . وفى لحظات ابتلعت أبواب الشرفة كل الوزراء والمسئولين والزعيم وسطهم فى حين هاج رجال الأمن وماجوا فى جماهير الساحة بالعصى والهراوات وكعوب البنادق . وسرت شائعات محمومة بأن الزعيم أصيب إصابة خطيرة . واستمر الهرج والمرج والصياح والعويل يتردد بين أمواج البشر التى اندفعت لتنفرط وتتناثر فى الشوارع والطرقات التى تصب فى الساحة وتنبع منها . وسقط البعض على الأرض والأرصفة لتدوسه النعال التى لا تلوى على شىء إلا الهروب من الجحيم المتصاعد مع طلقات الرصاص التى دوت هنا وهناك .

أما رجال الأمن المنوطون بحراسة الزعيم ، وكان بعضهم من البيض ذوى الوجوه المشربة بالحمرة ، فقد انطلقوا به فى سيارة مغلقة إلى ساحة خلفية فى حديقة قصر الرئاسة حيث قبعت طائرة هيلوكوبتر فتحت بابها لتبتلع الزعيم ومعه صفوة رجال الحزب وحكمائه ، وسرعان ما دارت مروحتها العملاقة لترتفع كطائر الرخ فوق مبانى العاصمة .

كان عقل الزعيم قد أصابه الشلل تماماً وهو ينظر من نافذة الطائرة إلى الأمواج البشرية المتدفقة عبر الشوارع ، لا يصدق أن ما جرى جرى ! وفى الحال أسرع إليه طبيبه الخاص ليقدم إليه كوب ماء وثلاثة أقراص ابتلعها بيد تحاول أن تبدو ثابتة ! لم يكن فى حالة تسمح له أن يفكر أو يتأمل أو يتكلم ! كان الصمت والشرود خير ملجأ له مع الأقراص التى سرعان ما أصابته بنوع

من البلادة !

طوت الطائرة سماء العاصمة لتتلاشى المبانى وتترك مواقعها لأحراش وغابات ذات خضرة داكنة ، وتلال ووهاد تمزج درجات الأخضر بالبنى ، وبحيرات تعكس زرقتها بريق الشمس ، وأكواخ متناثرة فى حضن الروابى ، وأسراب من الطيور التى فزعت بعيداً عن هدير الطائرة ، وغير ذلك من المشاهد التى لم تلتقطها نظرات الزعيم التى ظلت زائغة لما يزيد على ساعة حين هبطت الطائرة فى حديقة المقر الريفى الذى يستجم فيه الزعيم كلما شعر بإرهاق .

كان المقر على شكل أكواخ المواطنين العادية ، لكنها مصنوعة من أفخر الأخشاب والصلب الذى لا يصدأ ، ومجهزة بأفخر الرياش وأجهزة التكييف والاتصال بأية بقعة فى العالم ، وحولها حدائق فيحاء بكل ألوان الزهور النادرة ، وغناء بالكناريا والبلابل والببغاوت الجميلة ، ومسلية بالقرود والنسانيس القافزة والمتدلية بين غصون الأشجار العريقة ، والغزلان التى تتهادى أو تسابق الريح عند الحافة .

كم استراحت نفس الزعيم لهذه المناظر التى جلس أمامها يتابعها على مقعده البامبو الهزاز . احترم الرفاق خلوته فلم يقحموا أنفسهم حتى تهدأ نفسه . وبالفعل شرع فى اجترار ما جرى فى محاولة مستميتة لاستيعاب أبعاده ! هل دار الزمان دورته ودالت دولته وآن الأوان ليرحل كما طلب منه هذا الروائى الملعون ؟ ! هذه أول مرة منذ ثلاثين عاماً يعجز فيها عن إلقاء خطابه !وبماذا قذفوه ؟ ! بالحجارة والقمامة ؟ ! لم تعد أسعار البيض والطماطم تسمح لأحد بأن يلقى بها فى وجه أحد حتى لو كان وجه الزعيم !!

ابتسم فى سخرية مريرة وهو يسائل نفسه : إلى أين المفر لو قدم استقالته ورحل ؟ ! لقد أثبتت التجارب السابقة فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أن الزعيم لا يترك كرسى الرئاسة إلا إلى ظلمة القبر ، أو صقيع المنفى ، أو قضبان السجن ، فهل يمكن أن يترك كرسى السلطة ليسجى فى القبر أو ترتعد فرائصه فى المنفى أو يختنق فى الزنزانة ؟ ! لقد أصبحت المسألة بالنسبة له مسألة حياة أو موت ! وهو يتذكر الآن مثلا عربيا سمعه من أحد الزعماء العرب فى لقاء

معه فى أديس أبابا عند انعقاد مؤتمر القمة الأفريقى ، قال : إن السلطان كراكب الأسد إما على ظهره أو بين فكيه ، وليس هناك بديل ثالث !

لو أصابته رصاصة أو أكثر لبدا شهيد الوطن كله ! لكن حتى هذه الشهادة لم ينلها ! هل هذه هى قيمته ووزنه بعد كل الذى فعله من أجل الوطن ؟ ! وابل من الحجارة والقمامة !! كيف سيبرر للجبهة الداخلية والعالم الخارجى ما جرى على مسمع ومرأى من وكالات الأنباء وعدسات التليفزيون وميكروفونات الإذاعة ؟ ! إذا كان قد فقد زمام المبادرة من يده للحظات ، فهى لحظات نادرة وعابرة ، وقد استعادها الآن وسيرى الخونة المارقون جزاء ما جنته أيديهم !

ضغط على زر الجرس فوق المائدة البلورية الصغيرة فجاء السكرتير ليطلب منه تقريرا مفصلا عما جرى ! سمع الرفاق فى الكوخ المجاور رنين الجرس فعرفوا أن الزعيم قد استعاد جأشه فهرعوا ليروا ابتسامة عريضة تفترش وجهه وهو يشير إليهم بالجلوس والتشاور معه ، كانوا يدركون كم يعشق حكمتهم ! التفوا حوله فى نصف دائرة فى حين خرجت كلمات كبيرهم متأنية حاسمة :

-- ما جرى اليوم يا سيادة الرئيس كان تأكيداً لموقفى المعروف لفخامتكم ! الحرية لا تعنى الفوضى وإلا ترك العلم مكانه للجهل .. والفكر والأيديولوجية للخرافة والشعوذة .. والنظام للهمجية !!

صمت الحكيم للحظات استغلها حكيم أصغر سنا :

-- فلتفعل دول أوروبا الشرقية بنفسها ما تشاء .. حتى لو ذهبت إلى الجحيم !! فلم تكن فى يوم من الأيام مثلنا الأعلى .. نحن أدرى ببلدنا ومصيرنا بأيدينا !

وتوالت آراء الحكماء والزعيم يتجرع كوباً من الأناناس :

-- ستثبت التقارير أن ما جرى كان بسبب قلة منحرفة مدسوسة وسط الجماهير الغفيرة التى جاءت تحت سياط الشمس حبا وشوقاً إلى شخصكم الحبيب إلى قلوبها !

– أشم أصابع الإمبريالية الغربية التى خلا لها الجو تماماً فى أوروبا الشرقية .. فتريد أن تلتهم آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية !

– يدعون أنهم حماة حقوق الإنسان .. وهم أول من داس عل هذه الحقوق .. خاصة حقوق الأفارقة الذين استعبدوهم سواء هنا أيام الاحتلال البغيضة .. أو هناك أيام جلب العبيد للعمل فى المناجم والمزارع !

– يريدون أن نمارس لعبة التعددية الحزبية حتى نترك العمل الجاد المثمر إلى السفسطة الفارغة والجدل العقيم !

– لابد من إصدار بيان تؤكدون فيه فخامتكم للعالم أجمع أن ما جرى كان مجرد زوبعة فى فنجان .. وأنه تم استئصال الأصابع التى حاولت أن تلعب فى الخفاء !

– سنواصل المسيرة برغم كيد الكائدين !

عندئذ استرخى الزعيم فى مقعده قائلا :

– مواصلة المسيرة حتمية لا مفر منها .. لكننى أريد أن أطمئن أولا إلى كل أبعاد المؤامرة !

– لن تخرج عما قلناه وتوقعناه ! فالقاعدة الشعبية العريضة سليمة تماماً ولن تخدشها ألاعيب الصبية !

عاد السكرتير لينحنى ويقدم للزعيم مظروفاً كبيراً فضه فى لهفة وهو يضع النظارة الطبية السميكة على عينيه اللتين مسحتا التقرير مع انفراج أساريره وهو يقول للرفاق الحكماء :

– فعلا .. تم إلقاء القبض على عناصر الفتنة .. واعترفت رءوسهم بالعملاء الخارجيين الذين قاموا بتوريطهم فى هذه المؤامرة الدنيئة .. وهكذا انداحت الزوبعة من الفنجان لنملأه بأى عصير شهى !!

ضحك الزعيم فتفجر الحكماء بالقهقهة التى سرت بالتفاؤل والانتعاش والبهجة فى النفوس المشدودة .. قال كبيرهم :

– وأعتقد .. بعد إذن فخامتكم .. أن هذا التقرير خير بيان تطلعون به على

الجماهير المتعطشة لصوتكم الحبيب وطلعتكم البهية .. وتردون به على قلق دول العالم الثالث .. وتصفعون به وجوه الخونة فى جحورهم وكهوفهم !!

استعادت نبرات الزعيم ثقته المعتادة بنفسه :

– هيا بنا إلى العاصمة .. أريده مؤتمرا صحفياً عالمياً !!

أجاب كبير الحكماء دون تفكير :

– العالم بأسره سينتقل إلى فخامتكم هنا .. جميع مراسلى الإذاعات العالمية ومندوبى وكالات الأنباء ومصورى التلفزيون والسينما سيكونون هنا فى ظرف ساعة .. ستحملهم طائرات هيلوكوبتر متتابعة !

وتوالت تعليقات الحكماء :

– شعب فخامتكم الحبيب على أحر من جمر فى انتظار كلمة منكم تطمئنه على سعادتكم !

– أرادوا أن يفسدوا احتفالنا بعيد ميلاد ثورتنا المجيدة !

– نجاة فخامتكم خير احتفال بهذا العيد المجيد !

عندئذ فرك الزعيم يديه فى سعادة دافقة وهو يتابع غزالاً شارداً يطوى الأرض عند حافة الغابة :

– إنه ليس مجرد عيد ميلاد .. وإنما ميلاد جديد لثورتنا التى ولدت لتبقى وتتجدد على مر الأيام .. وإذا كان لابد من الممارسة الديمقراطية .. فإن الديمقراطية والحرية حق مكتسب لكل أنصار ورفاق الحزب .. أما أعداء الثورة وخصوم الحزب فليس لهم سوى ظلمة القبر أو صقيع المنفى أو قضبان السجن !

صفق حكماء الحزب وتمايلوا نشوة وطرباً ، ثم انهمكوا مع الزعيم فى وضع الخطوط العريضة للمؤتمر الصحفى العالمى !

* * *

صندوق العجائب

لم يعرف النعاس طريقه إلى جفون قائد النظام في تلك الليلة التى لا تريد أن تنتهى . استرجع حياته مع صديق العمر على مر أكثر من ربع قرن وكأنها شريط سينمائى مثير لم تعرف نهايته بعد . لم يكن يتصور أن يتحول صديق العمر إلى العدو الذى يطلب حياته بأى ثمن بعد هربه إلى أحدى العواصم الأوروبية طلباً للنجاة وربما للجوء السياسى الذى كان يأمل أن يفوز به.

عاش كظله تماماً ، بل لم يعرف أيهما كان ظلاً للآخر ؟ ! فقد كان متفوقاً فى الدراسة الثانوية واستطاع أن يلتحق بالكلية العسكرية دون وساطة فى حين كان عمه الضابط الكبير واسطته هو ! وفى الكلية كان صديق العمر ، الأول أو الثانى على أكثر تقدير سواء فى المواد النظرية أو العملية ، أما هو فكان متعثراً فى بعضها . وهو لا ينسى حفل التخرج الذى نودى فيه على صديق العمر بصفته أول الدفعة ليعلق الوزير على صدره النياشين ، وتومض على وجهه أضواء الكاميرات ، وتظهر صورته فى اليوم التالى فى الصحف والمجلات .

وبرغم أن صديق العمر كان ناجحا فى حياته العملية ومحبوباً من رؤسائه ، إلا أنه كان ذا حس وطنى نقى يضع المصالح القومية فى المرتبة الأولى قبل مصالحه الشخصية . ولذلك كان أول ضابط فى الدفعة ينضم إلى التنظيم السرى الذى كونه الضباط الثوار لقلب نظام الحكم .

نهض قائد النظام من فراشه ليشعل سيجارة ويجلس عند أعتاب الشرفة الفسيحة دون أن يلحظ أضواء العاصمة المتناثرة عند السفح . استسلم لفيض أفكاره :

– لا أنسى يوم جاءنى يعرض علىّ الانضمام للتنظيم العسكرى . ترددت فى أول الأمر وطلبت منه مهلة لأفكر وأدرس الموضوع من كل جوانبه ، كان يكره حرصى ودقتى وذكرنى بجملة قالها لى ذات يوم أستاذ الاستراتيجية فى

إحدى محاضراته بالكلية تعليقا على تصور وضعته لاستراتيجية خاصة بموقف معين . قال مداعبا إياى : أنت تملك عقلية تآمرية من نوع نادر ! ويومها ضحك الطلبة وأخذناها كلنا على محمل الدعابة والفكاهة ، لكن يبدو أن هذه الجملة رسخت فى ذهنه إذ لمحت فى لخطتها آنذاك ابتسامته المرسومة على يسار شفته السفلى والتى قد توحى بالسخرية ومشاعر أخرى غامضة كثيرة . وهى الابتسامة الغريبة التى كادت أن تصبح ملمحاً من ملامح وجهه !

لم أكن أستطيع أن أتصور حياتى بدونه . ويبدو أن انضمامى إلى التنظيم السرى كان نتيجة حتمية لانضمامه هو إليه من قبل . كنت أحسده على جرأته وجسارته وعدم اهتمامه بسلامته الشخصية ،فى حين كنت أحسب لكل خطوة حسابها وفى مقدمتها إمساك العصا من النصف . كان عمى الضابط الكبير من رءوس العهد البائد ، وكان يمكن أن يخرجنى كالشعرة من العجين لو أن الانقلاب فشل ، أو يخفف العقوبة على كأضعف الإيمان .

لكن الانقلاب نجح ووطد أقدامه وأصبحت من أشد المتطرفين فى المناداة بشعاراته وتطبيقها ، وكان الويل كل الويل لمن يبدى شبهة اعتراض على المبادىء الجديدة .أما صديق العمر فكان من الصعب بل من المستحيل أن ألعب معه هذه اللعبة الممتعة ، خاصة وأنه لم يبد أية تطلعات للانفراد بالسلطة والتخلص من الرفاق ، الواحد بعد الآخر . بل إن الرفاق أجمعوا ، ونادراً ما كانوا يجمعون على شىء ، على إحالة جهاز الاستخبارات برمته إليه كى يديره ويشكله كما يرى . كانت أمانته وإخلاصه ودقته فى تحرى الأمور من الأسباب التى أكدت لهم أن الجهاز سيكون فى أيد أمينة ، وبذلك سيضمنون حماية الظهور من الطعنات المفاجئة ، وحماية أسرارهم من التعرية والفضيحة ؟

أما أنا فكنت أشعر أن القيادة هى لعبة رجل واحد ، أو اللعبة الوحيدة فى العالم التى لا تسمح بأكثر من لاعب واحد ، أى التى لا تسمح بخصم أو منافس يضاعف من حمية الصراع على الفوز بأكبر عدد من الأهداف أو النقاط . وبرغم أننى لست من عشاق المسرح ، إلا أننى شاهدت ذات مرة فى إحدى العواصم الأوروبية بدعوة من عمدتها مسرحية لا يؤديها من بدايتها حتى نهايتها

سوى ممثل واحد ! كانت مملة وإن كنت قد أخفيت مللى بإعجاب باسم ، ومع ذلك حازت إعجابى عندما استرجعت كلمات الممثل وحركاته تحت أسماع المتفرجين وأبصارهم . كان يناجى نفسه ويبرر تصرفاته ويحلل دوافعه متنقلا بين أحداث الماضى ومواقف الحاضر وتوقعات المستقبل كما يحلو له دون ضغوط من الآخرين ، وإن كان يتذكر بعضها من خلال تجاربه السابقة .

كانت عين صديق العمر على تصرفات وسلوكيات كل الرفاق . وبرغم أنه عاش أعزب ، إلا أننا لم نسمع عن أية شطحات أو مغامرات أو غراميات يمكن أن تشوه صورته المثالية التى كان يحرص عليها حرصه على حياته . وبالتالى أجبرنى على أن أحذو حذوه حتى لا أتيح له أية ثغرة يمكن أن يتسلل منها إلى قلعتى الحصينة . فقد أردت أن أستخدم نفس أسلحته بل أستخدمه هو نفسه فى تنفيذ أهدافى ذات المدى البعيد . وتربصت معه لكل هفوات الرفاق وليس فقط لنزواتهم وثغرات ضعفهم .ومع الأيام كنت أحول الهفوة إلى فضيحة ، والنزوة إلى كارثة ، والثغرة إلى هوة ، فسقط فيها من سقط بلا هوادة ، بل إن بعضهم آثر العزلة والانزواء بعد أن تكالبت عليه أمراض القلب والسكر والضغط ، فى حين خاض البعض الآخر ميدان رجال الأعمال وبرعوا فيه ، لكننى لم أحسده لأن الثروة لم تكن بغيتى بل القيادة والزعامة والسلطة .

وأخيراً أصبحت وجهاً لوجه مع صديق العمر . كان حريصاً على رئاسته لجهاز الاستخبارات حرصه على حياته . وحاولت أكثر من مرة أن أستفسر منه عن السر فى هذا الحرص فكانت إجابته ملتوية كشخصيته . كان يقول إن فساد الاستخبارات فى الدول النامية لابد أن يؤدى إلى استشراء الفساد فى الدولة كلها ، أى أنه الوصى على نظافة النظام وطهارته ، ولولاه لفسدت الأرض ، والوصى على كل الأسرار والخفايا والدهاليز والكهوف . ويستطيع أن يتصنت على أكبر رأس فى البلد ويراقبه كما لو كان هناك شك فى إخلاص هذا الرأس الذى يدير دفة الأمور فى البلد . فهو المخلص والأمين الوحيد ذو الرسالة التى لا يحيد عنها.

تصور أن إمساكه بكل خيوط الأسرار والخبايا يمنحه سلطة يمكن أن تعلو

على سلطة قائد النظام نفسه . ففى إمكانه إخراج الأوراق الفاضحة فى الوقت المناسب فتنهار الجبال الرواسى مثل كثبان رملية فى مهب الريح الهوجاء . ونسى تماماً أنه يتمتع بهذا المنصب لأننى رضيت بوجوده فيه ، وفى إمكانى أن أخلعه منه بجرة قلم !

كم كرهت فى السنوات الأخيرة ابتسامته الساخرة المرسومة على يسار شفته السفلى ، خاصة عندما قال لى إنه لم يخلق إنسان إلا وكان فيه حزمة من نقاط الضعف ، وواهم من يتصور فى نفسه قلعة حصينة غير قابلة للاختراق ! سألته فى حزم لم يألفه منى : من تقصد على وجه التحديد ؟ ! أشاح بوجهه بعيداً وهو يقول : هناك نقاط ضعف يمكن التجاوز عنها وأخرى يمكن أن تؤدى إلى ارتكاب الخيانة العظمى ، ولكن حكم قائد النظام هو الفيصل فى النهاية بين هذه وتلك !

فى تلك الجلسة قررت التخلص منه ولكن بالتدريج حتى لا يعد للأمر عدته . عينت نائبا له حتى يكون عينا عليه ! وهذا النائب كان تلميذه ويده اليمنى فى تنفيذ العمليات التى أصبحت حديث العالم كله فى الصحف وأجهزة الإعلام . لقد أراد أن يثبت لى أن يد نظامنا الراسخ تستطيع أن تطول خصومه حتى لو هربوا إلى نهاية العالم .ومن هنا كان ابتكاره الذى فاق ابتكارات جيمس بوند والذى أسميته بصندوق العجائب . نجح صديق العمر فى تصميم صندوق على هيئة حقيبة سفر من النوع الكبير ، مغلف من الخارج بجلد فاخر ، ومن الداخل له فتحة ليست عمودية على فتحة الخارج المغطاة بقماش بنى يسمح بدخول الهواء لكنه يبدو جزءاً من الغلاف الجلدى . وبين الغلاف الجلدى الخارجى والغلاف الخشبى الداخلى طبقة من القطن والقش تحيط ببعض واقيات الارتجاج ، حتى لا يتخبط المخطوف المخدر داخله ، وفى الوقت نفسه يتنفس بطريقة طبيعية دون أن يثير الصندوق أية شبهات .

وعندما عرض علىّ الفكرة رحبت بها وأضفت إليها كالعادة إمكان استخدام الحقيبة الدبلوماسية ، بحيث يصبح الممثل الدبلوماسى مسئولا عن الصندوق منذ لحظة خروجه من المطار وإتمام عملية الخطف ثم عودته مرة أخرى إلى أرض

الوطن . ولم نضع فى اعتبارنا العرف الدبلوماسى الذى يحتم على الدولة مقدما حصولها على موافقة الدولة الأخرى على الشخص الذى تسند إليه الحقيبة الدبلوماسية والتى تنوى اعتماده لديها ، ذلك أنه إذا أخل الممثل الدبلوماسى بواجبات وظيفته جاز للدولة التى اعتمدته لديها أن تعتبره شخصاً غير مرغوب فيه وأن تطلب من حكومته سحبه . فنحن لنا طرقنا التى لا يسهل لأحد التعرف على كنهها مهما كانت براعته . ويمكننا العمل على المستويات الثلاثة للحقائب الدبلوماسية : مستوى السفراء أو الوزراء المفوضين ، ويعتمدون لدى رؤساء الدول ، ثم القائمين بالأعمال ويعتمدون لدى وزراء الخارجية .كنا ندرك تماماً أنه حتى لو انكشف الأمر ، فإنه ليس من السهل على أية دولة أن تثير معنا مشاكل قد تؤدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية ،لمجرد استعادتنا لمجرم هارب إليها من تطبيق القانون عليه فى بلده . بل إن تحدينا بلغ قمته فى آخر عملية اختطاف فأعلنا على العالم أجمع نجاح العملية ولم تحرك الدولة التى كانت مسرحا لها ساكناً .

وللحقيقة والتاريخ لم تكن الفكرة من ابتكار صديق العمر بالكامل ، بل استوحاها من عملية اختطاف إسرائيل للزعيم النازى إيخمان من البرازيل ومحاكمته فى إسرائيل وإعدامه بتهمة الجرائم التى ارتكبها ضد اليهود فى أثناء الحرب العالمية الثانية . ويبدو أن الإعدام هو النتيجة الطبيعية لكل العائدين فى الصناديق ، فمن يهرب من بلده ، خاصة إذا كان مسئولا كبيراًمثل صديق العمر ومعه أسرار الدولة ، لابد أن تكون جريمته هى الخيانة العظمى !

ويبدو أن صديق العمر كان قد شعر بحاسته الاستخبارية ببوادر حصارى له ، ورصدى لحركاته وسكناته انتظاراً للحظة الحاسمة التى أخلعه فيها من جذره . لكن يبدو أننى كنت متأثراً بذكريات الصبا والشباب فتخليت عن حسم القائد وتركت العنان لطراوة الصديق . كنت أريده أن يستقيل من تلقاء نفسه ، خاصة وأن أمراض القلب والسكر وتصلب الشرايين كانت قد تكالبت عليه مثلى تماماً . وقد نصحنا الأطباء بالتزام الراحة قدر الإمكان ، وتجنب الانفعالات الحادة ، والامتناع تماما عن التدخين . ولم ينفذ كلانا نصيحة

واحدة من هذه النصائح . لكننى التمست العذر لنفسى . فأنا قائد النظام الذى يسهر على حمايته ليل نهار ، فمن أين لى بالراحة الجسدية والنفسية والتخلى عن السيجارة ، سلوتى الوحيدة ؟ ! أما هو فليس له أى عذر على الإطلاق ، فلن تتعثر المسيرة الوطنية إذا ما آثر الراحة وأحال نفسه إلى المعاش !! لكن يبدو أنه يعتبر رأسى برأسه وأنه لو ترك موقعه لانهار كل شيء ، ليس فقط فى الجهاز ولكن فى الوطن أيضاً ! غرور ما بعده غرور !!

كان من المفروض أن أقيله بجرة قلم ، إذ يبدو أنه فهم من ترددى فى اتخاد خطوة حاسمة ، أننى عاجز أو خائف من اتخاذ هذه الخطوة . بل إننى كشفت ذات مرة عن أوراقى عندما صارحته بأن نظام الاستخبارات الحديث يحتم تغيير قيادته من حين لآخر من أجل تجديد دمائه ، لكنه رد علىّ بحسم ليس من حقه بأن ما ينطبق على الدول المتقدمة لا ينطبق على الدول النامية . ولعنت فى سرى أطياف الصبا وذكريات الشباب التى جعلتنى أضعه موضع الند للند دون أن أدرى .

لكن الأمر لم يكن قاصراً على هذه الأطياف والذكريات ! فقد كنت مدركاً فى السنوات الأخيرة محاولاته المستميتة لرصد حركاتى وسكناتى ! فقد نما إلى علمى نجاحه فى الحصول على صور من مستندات شرائى لفيلا فى سويسرا ، ورقم حسابى السرى هناك ! ثم تطور الأمر إلى الاحتفاظ بتسجيلات لبعض مكالماتى الهاتفيه الخاصة جداً ! فما كان منى سوى أن أنشأت جهازا خاصا بى داخل جهازه ، لكننى للأسف لم أتمكن من الحصول على أدلة دامغة تدينه ، وإن كان رجالى فى الجهاز قد أكدوا لى أن ما حصلوا عليه حقائق ووقائع يمكن أن تذهب به إلى السجن المؤبد على أقل تقدير .

عندئذ كان علىّ أن أتخذ القرار الذى ترددت فى حسمه كثيرا ، إذ لم يعد لدى أى بديل آخر . قررت أن أفاجئه بإقالته بحيث لا يعلم بها إلا من صحف الصباح مثل أى مواطن أو قارىء عادى ، على أن تكون على هيئة استقالة مقدمة منه هو لأسباب صحية ، وعلى أن يحل نائبه محله فى رئاسة الجهاز . وتم إبلاغ رؤساء التحرير بالنبأ قبل صدور الطبعة الأولى بثلاث ساعات .

لم أنم ليلتها من فرط الإحساس بالقوة والسعادة ظللت أدخن حتى الصباح . فى انتظار مكالمته الهاتفية التى يستعطفنى فيها أن أعيده إلى منصبه وهو يتساءل فى قلق ورعب عن الأسباب التى دفعتنى إلى اتخاذ مثل هذا القرار دون أن أخبره به . وكنت قد أعددت ردى مقدما على أساس أن الجالس على القمة يرى ما لايراه القابعون عند السفح ، وهو ليس مضطرا دائما لشرح الأسباب الخفية الكامنة وراء قراراته الاستراتيجية ، فهو الأدرى بمتطلبات الأمن القومى العليا .

لكن التليفون ظل صامتا . كان من عاداته أن يطلبنى فى مسائل أقل فى الأهمية من هذا بكثير ، وكان من عاداته أيضا أن يستيقظ مع الفجر لينصت إلى إذاعات العواصم الإمبريالية ويطلع على صحف الصباح . مرت الساعة السابعة ثم الثامنة ولم يتصل . سارعت بالاتصال بمدير الجهاز الجديد ليتصل به ويشرح أسباب القرار ، وأولها إتاحة الفرصة للقيادات الشابة كى تمارس مسئولياتها ضمانا لاستمرارية المسيرة . لكن المدير اتصل بى بعد ساعة من القلق الممض الذى قضى على نشوة الانتصار ، وأخبرنى بصوت يخنقه الذهول والحسرة بأنهم لم يعثروا له على أثر ! لم يتركوا مكانا إلا وفتشوا فيه عنه ! اضطروا إلى كسر باب شقته خشية أن تكون قد أصابته نوبة قلبية قضت عليه ، لكنه كان كفص ملح وذاب ! حتى فراشه المهندم أنبأ بأنه لم يمسه الليلة الماضية . اتصلوا بالطباخ والخادم فقالا إنه منحهما إجازة منذ يومين لأنه سوف يبيت فى مقر عمله . عندئذ تذكرت ابتسامته الكريهة المرسومة على يسار شفته السفلى والناضحة بالسخرية من قرارى الأخير الذى رأيت فيه انتصاراً حاسما لى وقاضيا عليه .

أمرت المدير الجديد بالبحث عن كل الملفات الخاصة بى وبالقيادة فى مكتبه ، وبعد نصف ساعة اتصل ليخبرنى بأنه لم يعثر لها على أثر ، أما التسجيلات فقد عثروا على كل تسجيلات كبار المسئولين باستثناء تسجيلاتى أنا ! فى تلك اللحظة المحمومة أصدرت أوامرى بمسح كل المطارات والموانئ ، ومعرفة أسماء الذين غادروا البلاد فى اليومين الأخيرين . وبعد ساعة تحققت كل هواجسى

السوداء ! كان قد غادر البلاد فجر أمس وهو محاط بكل الإعزاز والتبجيل من كبار المسئولين فى المطار !

منعت صوابى من أن يطيش وابتسامته الكهربية الكريهة الساخرة تضاعف انتشارها من يسار شفته السفلى إلى كل مساحات وجهه . كنت فى سباق مع الزمن فأمرت القسم الخاص فى الجهاز والملقب بقسم الزبانية بإعداد حقيبة تناسب حجمه والسفر فورا إلى العاصمة التى هرب إليها قبل أن ينتقل بين مختلف العواصم والمدن ويصبح إبرة داخل جبل من القش الهش فى يوم عاصف . لقد آن الأوان ليشرب من نفس الكأس التى سقى منها خصومه من قبل !

وانطلقت البعثة الدبلوماسية المميتة فى أعقابه ! أسميتها مميتة لأننى قررت محاكمته بتهمة الخيانة العظمى فى أعقاب عودته فى صندوق العجائب ! حمل معه أسرارى وأسرار البلاد ظنا منه أنه سيفضحنى أمام العالم أجمع حتى ينتقم منى شر انتقام ! كان يظن دائما أن زمام المبادرة فى يده ! اعتاد أن يترك لغروره العنان ليصور له كل ما من شأنه أن يغذى نرجسيته ! لكننى سأثبت له هذه المرة خطأ كل المرات السابقة التى تصور فيها نفسه سيداً لكل المواقف بلا منازع !

كان خوفى من فشلهم فى إعادته كبيراً وممضا ! فهو صاحب ابتكار صندوق العجائب وليس من السهل إيقاعه فى كمين من صنعه . ولذلك قلت لأعضاء البعثة المميتة إن مستقبلهم كله رهن بهذه العملية ، فأمن قائد البعثة والممثل الدبلوماسى على كلامى قائلا بأنها بعثة انتحارية من أجل أمن الوطن وسلامته . ثم أكدت لهم وأنا أودعهم أن استعادة الملفات والتسجيلات لايقل أهمية عن استعادته هو شخصيا !

وتابعت بالشفرة عن طريق السفارة كل خطوات البعثة التى تراوحت بين اليأس والأمل ، فى حين كاد القلق أن يقتلنى برغم خوف الأطباء منه على قلبى وأعصابى وشرايينى ، لكن المعركة كانت مصيرية ولابد أن أخوضها بكل جوارحى ، وخير لى أن أموت منتصرا فى نهايتها من أن أموت وسط أمواج

الشكوك والشائعات والفضائح وكل ما يشوه صورتى التى حرصت على بهائها العمر كله !

وكم كانت بهجتى ونشوتى عندما أبلغونى بالعثور عليه فى أحد الفنادق المتطرفة بالعاصمة ، وأن حركاته وسكناته أصبحت مرصودة لحظة بلحظة لحين الانقضاض عليه . فلم يكن يدرى أن الصندوق العجيب أصبح قابعا فى الغرفة المجاورة له ! وسرعان ما تم الانقضاض عليه وبعد استجواب محموم عن الملفات والتسجيلات التى لم يعثر لها على أثر ، أوشكت صرخة أن تفلت من فمه المكمم طلباً للنجدة، فما كان من رئيس البعثة سوى أن عاجله بالمخدر حتى لا يفتضح الأمر ، وسرعان ما تم إسجاؤه فى الصندوق !

كان كل قلقى أن يكون قد أودع الملفات والتسجيلات فى إحدى خزائن البنوك على أن تفتح وتذاع إذا ما جرى له مكروه ! ومع ذلك فإن نصف العمى خير من العمى كله ! يكفى أننا حصلنا عليه ومنه شخصيا سوف أعرف أين أخفى الملفات والتسجيلات ! المهم أننا أمسكنا بالخيط قبل أن يضيع من أصابعنا إلى الأبد ونضيع نحن معه ! ولذلك كانت تعليماتى أننى سأقوم بفتح الصندوق بمعرفتى حتى أنتشى باللحظة التى سأراه فيها وجها لوجه . كان رأى الطبيب الخاص إخراجه من الصندوق بمجرد ركوب الطائرة خوفا من أن يصاب بضيق تنفس لكن مدير الاستخبارات الجديد أكد له أن الصندوق جيد التهوية تماماً ، ولابد من كتمان الأمر تماما حتى إحضاره لسيادة القائد !

وبالفعل انطلقت الطائرة عائدة إلى أرض الوطن وعلى متنها أغلى كنز ، ولم يتبق على وصولها أكثر من ساعة !

* * *

نظر القائد إلى ساعة يده فوجدها تقترب من السابعة صباحا وقد افترش نور الصباح بيوت العاصمة المتناثرة والمتمسحة بأعتاب الشرفة الفسيحة . تناثرت أعقاب السجائر على بللور المنضدة الصغيرة أمامه بعد أن ضاقت بها المطفأة الصينية . لم يعرف كم دخن من سجائر فى تلك الليلة التى لم يغمض له فيها جفن ، والتى لم تبارحه فيها ابتسامة صديق العمر المنتشرة من يسار شفته السفلى

إلى كل مساحات وجهه بكل السخرية والمرارة برغم إيمانه بأن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً !!

نهض وهو يرزح تحت أثقال كالجبال ، كانت نفسه سعيدة بعودة صديق العمر لكن جسده فى غاية الإنهاك الذى يسرى فى أنفاسه بضيق غير عادى . ذهب إلى الحمام ليغتسل ويحلق ذقنه ويتعطر ويرتدى حلته المفضلة للترحيب اللائق بصديق العمر . أراد أن يدندن بأغنيته التى تثير فى نفسه أجمل الذكريات وتذكره بأسعد اللحظات ، لكن دخان السجائر طوال الليل أصاب صوته ببحة أوحت إليه بإنهاكه وإرهاقه .

هرع إلى غرفة مكتبه وفى أعقابه خادمه الخاص فى انتظار أوامره التى لم يصدرها بل اكتفى بغلق باب المكتب خلفه ورفع سماعة الهاتف مستفسرا عن آخر الأنباء ، فعلم أن الطائرة قد وصلت ، وصديق العمر فى طريقه إليه بالسيارة . تسارعت دقات قلبه دون مبرر واضح وكأنه على وشك الخوض فى امتحان لم يمر بمثله من قبل ! كبت القلق مع أنفاسه المكبوتة ، فاللحظة القادمة هى لحظة النجاح وليست لحظة الامتحان . وهو الذى يمتحن الناس ويختبر البشر ويتحكم فى مصائرهم وليس العكس .

عاد إلى التدخين بشراهة أشد وظل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً إلى أن سمع دقات على الباب فأذن بالدخول . فتح الباب وأعلن السكرتير وصول الوفد ثم تراجع ليدخل الصندوق محمولا على الأكتاف التى هبطت به على البساط الوثير أمام المكتب . ارتعش جفن القائد وهو يأمر الجميع بمغادرة الغرفة . كان على وشك أن يأمرهم بعدم المغادرة ليأنس بوجودهم لكنهم تلاشوا فى لمح البصر بل أغلقوا الباب خلفهم . سرى رنين السكون الرهيب فى أذنيه مسرى السم الزعاف . تقدم ليمد يده ليفتح الصندوق لكنه سحبها مرة أخرى مع رعشة كهربية تسرى فى جسمه كله ! أليست هذه لحظة الانتصار ؟ ! فيم التردد ؟ ! ما خطبك ياصديق العمر ؟ ! لماذا لا تحدث أية حركة تنبئ بها عن وجودك ؟ ! هل يمكن أن تكون إحدى ألاعيبك الجهنمية فلا أجد فى الصندوق سوى بعض الأحجار أو الأخشاب ؟ ! وتختفى أنت تماما مثلما أخفيت الملفات

والتسجيلات ؟ ! ما لى أشعر بضعف يكاد يمسك بكل أعضائى ؟ ! وما جحافل النمل هذه التى تسرى فى كتفى وذراعى اليسرى ؟ ! هل يمكن أن أظل مشلولا هكذا وجميعهم بالخارج فى انتظار ظهور نتيجة مسعاهم الرهيب المحفوف بالمخاطر والأهوال فى كل لحظة ؟ !

عزم أمره وضغط على المفاصل المعدنية للشرائط الجلدية المحيطة بالصندوق فتساقطت ، ثم مست أصابعه الخبيرة الأقفال ففتحت ، ولم يتبق سوى رفع الغطاء . أغمض عينيه كمن يعانى من كابوس وبذراعين متقلصتين مرتعشتين جذب الغطاء وألقى به على الجانب الآخر . أجبر نفسه على فتح عينيه ليرى المشهد الذى أوشك أن يوقف قلبه عن النبض . لم يشعر بساقيه وكأن الدم قد توقف عن التدفق فيهما . قاوم الارتعاش والسقوط وهو يرى صديق العمر شبه متكور وقد جحظت عيناه وسط ابتسامته الكهربية الساخرة التى انتشرت من يسار شفته السفلى إلى كل مساحات وجهه الشاحب الأصفر !

أغمض عينيه مرة أخرى وهزه بعنف لكنه لم يستجب ! كرر المحاولة مرات ومرات فى استماتة لكن جحوظ العينين وابتسامة السخرية ظلتا كما هما ! خرجت من حنجرته صرخات وصيحات كعواء الذئاب : انهض ! قم ! كفاك سخرية منى ! لم أعد أحتمل ألاعيبك الجهنمية أكثر من هذا ! إلى الجحيم وحدك أنت فقط !

ثم تحولت الصرخات إلى قهقهات مبحوحة مشروخة وقد تقلصت أصابع يمناه على كتفه اليسرى فى حين فتح الباب لتدخل المجموعة وفى مقدمتها الطبيب الخاص الذى هرع ليجس نبض المسجى وإذ به يسبل عينيه ويقول للقائد :

- البقية فى حياة سيادتكم !

عاد إلى عوائه غير عابئ لأول مرة بالحاضرين :

- غير معقول ! مستحيل ! آخر ما كنت أتوقعه !

أمسك الطبيب بالقائد بكل قوته :

ـ قلبك يا سيادة القائد !! أرجوك ! الأمة فى حاجة اليك !! إنها إرادة الله ! راح إلى حال سبيله !

تدخلت المجموعة فى الحوار لتعزف سيمفونية واحدة :

ـ ليس لنا وجود بدون سيادتك !

ـ حفظك الله لنا ذخرا وعونا !

ـ البلد فى انتظارك !

ـ عشرون سنة فى ظلك مرت كحلم !

ـ جعلت العالم كله يحسب لنا ألف حساب !

ـ كانت نهايته وشيكة .. سواء فى الصندوق ..

ـ أو على حبل المشنقة !

كان يتابع تعليقاتهم بنظرات زائغة تكاد لاتستوعب مايجرى ! أمسك الطبيب بنبضه وهو يكاد يشهق :

ـ أرجوك ياسيادة القائد ! استرح !

وقاده الطبيب إلى أقرب مقعد وفتح رباط عنقه وياقة قميصه ، فى حين كانت الأنفاس تضيق به . نظر الطبيب إلى الواقفين :

ـ عربه إسعاف فورا ! لابد من نقله إلى غرفة الإنعاش !

اختفى أحدهم كالبرق فى حين شدت العيون إليه بخيوط غير مرئية ثم تبادلت نظرات حائرة متسائلة ، والطبيب يقوم بتدليك صدره ويديه ، ويحقنه ببعض السوائل . ومع ذلك تتابعت شهقات القائد ثم تحولت إلى أنين أصبح فى لحظات نوعا غريبا من السكون الرهيب ! انكب الطبيب على عمليات التدليك والتنفس الصناعى فى محاولات مستميتة لتجاوز الأزمة التى أمسكت بخناق الجميع . زحف اليأس على وجه الطبيب ، وسرى البطء فى حركاته اللاهثة ثم نظر إلى الواقفين دون أن يفتح فمه ففهموا كل شىء ! أسبل الطبيب عينى القائد فى حين حاولت المجموعة الخروج من الكابوس بجمل متناثرة

شكلت سيمفونية متنافرة :

- ما العمل الآن ؟ !
- لا بد من الخروج ببيان على الشعب !
- لنبلغ النائب فورا !
- إنه قادم الآن !
- لم يكن له دور إيجابى فى الأحداث !
- المهم أن نعبر الأزمة الآن !
- كان ملء السمع والبصر !
- ليس هذا وقت البكاء !
- إنه وقت الحسم لمواصلة المسيرة !
- هيا بنا لصياغة البيان !

وهرعوا إلى الغرفة المجاورة تاركين الطبيب إلى جوار القائد الراحل الذى بدا فى مقعده كأبى الهول !!

* * *

كرسى الباشا

سيدى سعادة الباشا ..

فكرت كثيراً قبل أن أكتب هذه الرسالة لسعادتكم ، إذ كنت أود أن أفتح الموضوع معكم من خلال حوار متبادل بينى وبينكم ، لكن يبدو أن الحوار أصبح مستحيلا وسط معمعان رجال الحزب الذين لا ينفضون من حولكم لحظة واحدة ، فآثرت أن أبعث بهذة الرسالة التى تتيح لى فرصة شرح كل شىء حتى لا يساء فهمى وحتى لا يتهمنى أحد بالانتهازية ، إذ اعتدت أن أفعل كل شىء بناء على قناعة شخصية كانت هى الدافع الأساس لانضمامى لحزبكم ، كما قد تكون الدافع الآن للاستقالة منه إذا خابت كل آمالى فى العمل السياسى من خلاله ! خاصة فى اجتماع الليلة الذى ستناقشون فيه مقترحاتى !

سأقص على سعادتكم حكايتى من الألف إلى الياء . الحكاية التى لم أستطع أن أقص منها سوى بعض شذرات فى لحظات اختلستها من وقتكم الثمين . وحتى فى هذه اللحظات الخاطفة كنتم تبدون مشغولين عنى بأمور لا شك أنها أكبر وأخطر أهمية منى فى اعتباركم . وساءلت نفسى فى دهشة : لماذا الترحيب بانضمامى للحزب طالما أننى لست بهذه الأهمية وأنا الذى تصورت فى بادىء الأمر أننى سأصبح أحد زعماء هذا البلد الذى يشار إليهم بالبنان فى كل مكان وزمان ؟ ! هل كان الأمر مجرد كثرة عددية لتأكيد شعبية الحزب ؟ ! أم لأن جدى كان حاملا لرتبة البكوية وأبى من شباب الحزب المتحمس النشيط قبل الثورة ؟ ! فالأمر لم يقتصر على الترحيب بى عضوا فى الحزب بل خطيبا لحفيدتكم الكريمة ، وهو الشرف الذى حسدنى عليه شباب الحزب والذى جعلنى أتساءل فيما بعد : لو كانت أسرتى من الأسر الكادحة المتواضعة ، هل كان من الممكن قبولى عضوا جديدا فى عائلة الباشا العريقة ؟ !

ومع ذلك تجاوزت كل هذه التساؤلات لأن أهدافى الاستراتيجية كانت

أبعد وأشمل بكثير منها ! لكن عندما تتراكم التساؤلات وتتحول إلى جبل من الحيرة دون الفوز بإجابة يتيمة عن أحدها ، فإن الأمر كله يتطلب وقفة وإعادة الحسابات كما تعلمنا على يديك ، خاصة فى حملاتك العنيفة ضد ثورة يوليو . ذلك أن إعادة الحسابات وحرية المناقشات وإعلان المواقف ، حق مكفول للجميع طبقا لمبادئ الحزب الديمقراطية والليبرالية ، والمبادىء ياسيدى لا تتجزأ .

مشكلتى ياسيدى أننى لا أعى شيئا عما دار قبل ثورة يوليو سوى ما سمعته من أبى وجدى ، ولا بد أن وجهات النظر الشخصية والميول والتوجهات والمصالح الطبقية والاقتصادية تلعب دورا كبيرا فى الابتعاد عن المواقف الموضوعية ، خاصة وأن الأسرة ملأت أذنى بأمجاد العهد الملكى فى صباى وصدر شبابى ، مع تأكيدها الدائم على أن أبدو غير ذلك تماما خارج نطاق الأسرة والبيت ، بل وترحيبها بانضمامى إلى منظمة الشباب التى أنشأها الاتحاد الاشتراكى لاستيعاب كل التيارات التى قد تطرأ على الساحة الشبابية .

كدت أصاب بانفصام الشخصية !! أعيش بوجدانى ومشاعرى فى عهد الملكية ، وأعيش بعقلى وجسدى فى عهد الثورة ! وظللت بين طرفى الجذب والشد حتى رحيل عبد الناصر الذى نجح فى أن يبهرنا بضرباته التاريخية التى كان تأميم القناة والوحدة مع سوريا فى مقدمتها ، لكن كلما كان أبى يرحل إلى المعتقل دون ذنب جناه سوى وجود اسمه فى قوائم العهد البائد ، كان يذهب بلا ميعاد ويعود بلا ميعاد كأنه يتعامل مع القدر ، كنت أنقم على الثورة ورجال الثورة . ومع ذلك لم يتخل أبى عن حكمته وتحفظه ونصحه الدائم لى بأن أبدو ابناً باراً بالثورة . حفظت الميثاق عن ظهر قلب وأنا أدرك أنه صدر فى ٢٢ يوليو ١٩٦٢ لاستيعاب صدمة الانفصال فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وكذلك برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ بالنسبة لكارثه ٥ يونيو ١٩٦٧ . وحتى « ورقة أكتوبر » التى صدرت فى ١٥ مايو ١٩٧٤ . تقنيناً لنصر أكتوبر ١٩٧٣ ، فتحت الباب على مصراعيه للذين قطفوا ثمار النصر فى غفلة من الزمن تاركين الذين يستحقونه فى لفح العراء . وكان التحول الذى بدأه السادات من الانغلاق الاشتراكى إلى الانفتاح الرأسمالى قد أكد لى صحة مادار فى

وجدانى ومشاعرى ، والذى ترسب عندى منذ أيام الصبا وصدر شبابى ، وهو أن التجربة الاقتصادية والسياسية فى عهد الملكية كانت أكثر نجاحا ورسوخا ، برغم سلبياتها ، من تجربة الثورة ، بدليل أن أحد قادة الثورة ، وهو قائد حرب أكتوبر ، يدير دفة الأمور كى يعود بها إلى ما قبل ثورة يوليو ، من تلقاء نفسه ودون أى ضغط خارجى أو داخلى ، بل إنه لم يخف تطلعاته الأرستقراطية التى صرح بها أكثر من مرة . ثم كانت تجربة المنابر التى تحولت بعد ذلك إلى الأحزاب .

كانت بهجة أسرتنا لا توصف بهذه التحولات التى لم يكن لنا فيها دخل ، بل هبطت علينا كمنحة قدرية . لم نكن نحلم فى يوم من الأيام أن تأتى الدولة بنفسها وتقول لنا : هيا كونوا الحزب الذى يعبر عن مبادئكم بل تقرر أيضا تدعيم حزبكم وغيره من الأحزاب ماليا حتى تقفوا فى الساحة السياسية راسخين ! ودون تفكير هجرت الاتحاد الاشتراكى الذى كنت عضوا نشيطا فيه إلى حزبكم الوليد ، وكان قبولى فيه دون تفكير أيضا . لم تترك النشوة فرصة لأحد فينا كى يراجع حساباته ، خاصة وأن الحسابات والتوجهات والمبادىء القديمة كانت جاهزة لإخراجها من أدراج ما قبل الثورة ، ومن حالة التحنيط إلى مرحلة الإحياء ! وما علينا سوى أن نشرعها أسلحة حامية فى وجه الملتحفين بأردية الثورة والناصرية والاشتراكية !

وتحول مقر الحزب إلى خلية من الاجتماعات واللقاءات والندوات ، وصدرت صحيفته التى أصبحت بين أيدى القراء كالفاكهة المحرمة التى طال انتظارها ! والعجيب أن الحزب فتح بابه على مصراعيه لكل من أراد الانضمام إليه ، وقبل اليسارى والاشتراكى والناصرى والثورى وكل من كان ماضيه ضد مبادىء الحزب . ويبدو أنكم رحبتم بهؤلاء على سبيل تعرية زيفهم وإسراعهم لركوب كل موجة مهما كانت متلاطمة مع موجتهم السابقة !

وعندما انداحت النشوة وانهمك الأعضاء فى الممارسة ، كنت قد سئمت من الممارسات السياسية العقيمة من خلال التنظيم الأوحد الذى لا يعرف سوى الشعارات واللافتات والهتافات والمسيرات والجعجعة الخالية من أى طحن ،

فقدمت خطة قومية لمحو الأمية ، والتنمية الزراعية والصناعية ، وتحديد النسل ! وكان ايمانى أن نجاحنا فى أحدها يمكن أن يدخلنا التاريخ من أوسع أبوابه ! فالناس الآن لا يلتفتون أو لا يلتفون إلا حول السياسة التى تحدث فى حياتهم تغيرات مادية ملموسة نحو الأفضل . فالشعارات واللافتات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، خاصة وأن سواعد الشباب وأوقاته المهدرة يمكن أن تتحول إلى طاقات بناءة تأتى بالمعجزات !

وانتظرت على أحر من جمر طرح خطتى للمناقشة فى اجتماعات الحزب ، لكن عبثا ! ألححت على إدراجها فى جدول الأعمال لكن كانت الحجة دائما أن هناك ترتيبا استراتيجيا للأولويات . وواظبت على حضور المناقشات فإذ بها تصفية حسابات قديمة مع الثورة ! وجريدة الحزب جاهزة لنشر كل أنواع التصفية سواء فى مقالات أو أحاديث أو لقاءات أو أخبار . أى أن الماضى هو قضيتنا الوحيدة ، أما المستقبل فلم يعد يشغل أحدا فى وقت أصبحت علوم المستقبل فى صدارة العلوم التى تدرس فى جامعات العالم المتحضر ومعاهده ! وبدا الحزب وكأنه مركبة انطلقت بركابها من النصف الأول للقرن العشرين إلى العقد الأخير من النصف الثانى له ! حتى الأعضاء الجدد تقمصوا أرواح القدماء وراحوا ينحنون ويقبلون يد الباشا عند السلام عليه ! ولابد أن أعترف لسعادتكم بأننى انجرفت فى بداية الأمر فى هذا التيار ، لكننى لم أحتمل مسألة تقبيل اليد وسرعان ما تخليت عنها ، ويبدو أن رحابة صدركم قد استوعبت حقيقة مشاعرى فكنتم تسحبون يدكم بمجرد التقاء الأصابع !

وأشهد لكم بالعقل الكبير ، الحكيم ، الخبير ، الواعى بكل طبائع البشر وألاعيب السياسة من خلال الحوارات السريعة التى دارت بينى وبينكم . كنتم ترحبون بأفكارى وخططى كأنها كشف تاريخى لم يسبق له مثيل ، لكن يبدو أن هذا شىء ، والمناقشة والتخطيط والشروع فى التنفيذ شىء آخر تماما ! ومع ذلك واصلت نشاطى فى الحزب بقدر الإمكان على أمل أن تسفر الممارسة والتجربة عن صيغة جديدة تواكب روح العصر . فإذا كنا نقول فى اجتماعات الحزب إن الزمن جاوز الثورة بمراحل ، فإنه من باب أولى يكون قد جاوز

لم تخفوا سعادتكم فرحتكم بانهماك أسرتى الكبيرة العريقة فى كل أنشطة الحزب . فقد كانت تشكل سنداً ودعماً قويا له . لكن القلق فى عينى لم يغب عن لماحيتكم ، فكنتم تنصحونى بالتأنى والصبر ، فكل كوارث الثورة كانت نتيجة للعجلة والتسرع والشطحات التى أوردتها مورد التهلكة . ولذلك يجب على طاقة الشباب أن تتسلح بحكمة الكبار وإلا غرقت السفينة . لكن عندما تتلكأ حكمة الكبار فإنها تتحول إلى وصاية على طاقة الشباب الذين يصبحون قصراً فى حين أن عجلة الزمن لا تتوقف لأحد !

لكن يبدو أنها دارت معى فى مسار آخر ! واذ بعقلى ينشد بعض الاسترخاء تاركا الحلبة لقلبى الذى استسلم تماما لسحر حفيدتكم الرقيقة الجميلة الذكية التى حسدنى عليها كل شباب التيار المحافظ فى الحزب ، فى حين نفر من استسلامى هذا ، الشباب المكافح الذى جاء من أسر متواضعة بحثا عن فرص الحرية والديمقراطية التى فشلوا فى البحث عنها فى الأجهزة الشمولية السابقة ، واتخذوا منى رأس حربة عندما ناديت بمحو الأمية ، والتنمية الزراعية والصناعية ، وتحديد النسل ، لكن نفورهم من شروعى فى مصاهرة الباشا لم يتعد حدود الانفعالات الشخصية والمخاوف من تحول الحزب إلى مجرد كيان عائلى !

كانت أسرتى منتشية فخورة بالمصاهرة . وتم عقد الخطبة فى قصركم العامر المنيف الذى لم يكسبه الزمن سوى مزيد من العراقة والأصالة . واقتصرت الدعوة على الأسرتين وفروعهما ، أما أعضاء الحزب فلم يدع منهم أحد برغم أن الخطيبة الجميلة عضو نشيط فيه أيضا ولها من المواقف والآراء ما يثير احترام الشباب بصفة خاصة ! وعندما ألمحت لسعادتكم بأن الفرحة كان يمكن أن تكون مضاعفة إذا دعونا بعض أعضاء الحزب من الزملاء والأصدقاء المقربين لنا ، فكانت اجابتكم آية فى الدهاء السياسى عندما قلتم : أخاف أن يظن شباب الحزب المتحمس أن الحزب قد تحول إلى مجرد كيان عائلى ! الخطبة مسألة عائلية بحتة ليست لها أدنى علاقة بالحزب !

كانت شخصيتكم قاهرة غلابة تتوقف عندها كل الأمواج المتدفقة وكأنها

السد العالى ، وإن كنتم لا تحبون هذا التشبيه على الإطلاق ! وقد تأكدت من خلال لقاءاتى بخطيبتى بأن أفكارها وآراءها المنظمة العلمية تتراجع على الفور عند ظهور شبح سعادتكم فى الحوار ! فأنتم المرجع والمقياس والمثل الأعلى ، وليس لى اعتراض على هذا ، لكن لى أيضا الحق فى أن تكون لى أفكارى وآرائى الخاصة بى والناتجة عن اختلاف الجيل ، وهذا أضعف الايمان !

كذلك لاحظت أن حماسكم لى قد تضاءل وإن كنتم تحاولون قدر الإمكان إظهاره من حين لآخر ! فى بداية انضمامى للحزب بلغ احتضانكم لى أنكم صارحتمونى بأننى سأكون فيلسوف الحزب ومنظره العقائدى حتى أنقل رسالته للأجيال التالية ، كذلك قررتم تعيينى رئيسا لتحرير جريدة الحزب . لكن بمرور الأيام أوكلتم الجريدة إلى صحفى يتفجر حماسا لكل ما تنطقون به ، أما مسألة فيلسوف الحزب ومنظره فقد نسيت تماما ، وعندما ذكرتكم حفيدتكم بها قلتم لها بنفس الدهاء السياسى : إذا درسنا هذا الموضوع بعمق فسنجد أنه من تقاليد وأصول الأحزاب الشيوعية والشمولية والنازية والفاشية ، وحزبنا نقيض هذه الأحزاب تماما !! فإذا لم يتبق لى سوى أفكارى ومقترحاتى وآرائى ، فإنها ستصبح مجرد ضوضاء لا معنى لها إذا لم توضع موضع التنفيذ ، ليست كلها ، فأنا قد تراجعت عن طموحى الأهوج ، وإنما مجرد جزء منها أو خطوة أولى على الطريق ، فإذا لم يتيسر لى هذا الأمل المتواضع ، فستصبح كل صلاحياتى أننى خطيب حفيدتكم !! صحيح أننى أحبها وأحترمها وأقدرها ، لكن إذا تحكمت العصبية الأسرية والاعتبارات الحزبية فى موقفها منى فلن أرضى بأن أكون مجرد« زوج الست » .

عفوا يا سعادة الباشا ! فقد ولى زمان الحب الرومانسى الذى لا يستمع فى الدنيا إلا إلى نداء القلب ! وقد آن أوان الصدق مع النفس ومع سعادتكم ومع حفيدتكم ! بعد أن عشت حياة مزيفة تجبرنا على الفصل بين ما نفكر فيه وبين ما ننطق به وبين ما نفعله ! وحتى الآن لازلت أحفظ « الميثاق » و » برنامج ٣٠ مارس » و » ورقة أكتوبر » عن ظهر قلب ، لكن ماذا فعلنا بكل هذه الشعارات واللافتات ؟ ! لا شيء ! ولست على استعداد أن أكرر هذا الزيف

مرة أخرى ! فالعمر ليس رخيصا إلى هذا الحد حتى أضيعه هكذا فى حياة لا معنى لها ! لقد سئمت من أن أكون مجرد كرسى فى قاعة أية منظمة سياسية ، وبالتالى لن أحتمل أن أكون مجرد كرسى للباشا يجلس عليه وقتما يشاء ، ويلقى به إلى المخزن المظلم إذا سئم منه ، أو إذا لم يعد مظهره يليق بفخامة الحزب ! كما أننى لست على استعداد للدفاع عن استمرار الباشا على كرسيه بحجة أنه لا يوجد فى الصف الثانى من يمكن أن يحل محله ! فعجلة الحياة لا توقف دورانها من أجل سواد عيون أى إنسان ، مهما كان هذا الإنسان ! وأى كائن حى يفقد القدرة على تجديد دمائه لا بد أن مصيره الاندثار !

لا أقول هذا الكلام طمعا فى أن أحل محلكم ! فأنا أتكلم بموضوعية كاملة ! ومن يطمع فى كرسى الباشا لا يصارحه ولا يواجهه بل يداهنه ويتملقه حتى تحين الفرصة للانقضاض عليه ! وأكبر دليل على صدقى أننى سأحمل هذه الرسالة فى جيبى إلى اجتماع الحزب الليلة ، فإذا وجدت أن أفكارى وآرائى ومقترحاتى ستهمل أو ستؤجل أو ستدخل متاهات الجدل السياسى ، فسأقدمها لسعادتكم بصفتها خطاب استقالتى من الحزب ! وهى رسالة لم أفاتح أحداً بشأنها !! ولا حتى خطيبتى ! فهى قرار خاص بى شخصيا بعد أن سئمت من وجود الكرة فى ملعبى لا أعرف ماذا أفعل بها بمفردى !! فقد قررت أن أقذف بها وبمنتهى القوة إلى ملعب الآخرين ، وعلى كل أن يحدد أسلوب لعبه بها ، سواء أصاب بها المرمى أو ألقى بها خارج الملعب ! وهذه ليست مناورة من المناورات التى خبرتها فى دهاليز الحزب وذلك للضغط من أجل مكاسب شخصية ، فالمناور بطبيعته يحفظ لنفسه دائما خط الرجعة ، وخط الرجعة لابد أن ينقطع تماما لو أحرج المناور رئيس الحزب أمام كل أعضائه فى اجتماع حاسم مثل ذلك الذى سيعقد الليلة !

عفوا سعادة الباشا مرة أخرى ! أرجو ألا تحمل رسالتى إليكم على أنها نكران للجميل ، أو عض اليد التى امتدت إلىّ ورحبت بى ، أو طعن فى الظهر ، فليس هذا من خصالى أو أخلاقى ! بل أتمنى من كل قلبى ألا أخرجها من جيبى على الإطلاق ، وأخرج من اجتماع الليلة وقد تأكدت أن حزبنا قد

وضع بصماته الحقيقية الفعلية والعملية على خريطة بلدنا بعيدا عن كل الممارسات الجدلية العقيمة ! لو وقع ما أتمناه فسوف أعود إلى منزلى سيرا على الأقدام وأنا فى قمة النشوة وأصابعى تمزق هذه الرسالة وتذروها مع هبات النسيم على كورنيش النيل ، كأنها لم تكن !

وأرجو أن تلتمسوا لى العذر فى موقفى هذا سواء هجرت الحزب أو عدت إلى أحضانه ! فأنا لا أفعل هذا إلا تطبيقا للحرية والديمقراطية التى تنادون بها فى كل خطبكم وأحاديثكم وندواتكم و تصريحاتكم ! والديمقراطية - كما تعلمنا على أيديكم - لا تتجزأ . وأنا عندما أتخذ هذا الموقف فأنا أثبت لسعادتكم قبل أى إنسان آخر ، أننى أبن بار لكم وحريص على مبادئكم وقيمكم ! وهذا شىء يسعد أى أب يجد فى أبنائه امتداداً حيا له !

لن أطيل على سعادتكم أكثر من هذا ، فأنا أدرى بوقتكم الضيق الثمين ، ولازال لى وطيد الأمل فى ألا تصل هذه الرسالة إلى سعادتكم وأن يكون مصيرها قاع النيل . فالمستقبل فى انتظارنا جميعا وعلينا أن نهرع إلى أحضانه ، أما الماضى فقد مضى إلى حال سبيله بلارجعة !

وتفضلوا بقبول فائق احترامى وأجلالى .

* * *

وقع الرسالة وطبقها داخل مظروف وضعه فى جيبه . نظر إلى الساعة المرمرية الصغيرة على مكتبه فوجدها تشير إلى السادسة مساء ! خرجت من بين شفتيه شهقة خافتة سريعة ! لم يتصور أن تستغرق كتابة الرسالة خمس ساعات متصلة بحيث لم يتبق على اجتماع الحزب سوى ساعة واحدة . سرى فى عضلاته تعب لذيذ ، كمن أزاح من على كتفيه جبلاً ! طرد الجوع بالتهام بعض قطع من اللحم والفاكهة ثم هرع إلى غرفة نومه يمسح وجهه بعطره المفضل وكأنه فى طريقه إلى الاحتفال بعرسه !

قاد سيارته الصغيرة عبر طريق الكورنيش وقد أدار المسجل بموسيقى صادحة امتزجت بالنسمات الرقيقة المتدفقة من النافذة المفتوحة ! كانت معالم الطريق

أمامه واضحة كما لو كانت صورة فوتوغرافية ناطقة بكل التفاصيل الدقيقة ! انطلقت السيارة بثبات وليونة وسكون محرك لايبين عن صوته حتى بلغت بوابة مقر الحزب حيث اصطفت سيارات الأعضاء فى طابور محاذى للطوار .

دخل إلى الحديقة ليلتف حوله الأصدقاء والزملاء فى حوار ساخن حول اجتماع الليلة ، وسرعان ما وصلت الخطيبة الجميلة المدللة لتتعلق بذراعه وهى فى أبهى فستان أخضر يتناغم مع عينيها الخضراوين ويحتوى جسمها الأبيض الرقيق المشع بأحدث العطور الباريسية . لكنه تجنب ابتساماتها ودعاباتها وضغطها من حين لآخر على يده التى احتوتها بأناملها الدقيقة الناضحة ببعض العرق . جذبها برقة فسارت خلفة المجموعة فوق درجات السلم المؤدية إلى القاعة التى رصت فيها الكراسى التى احتل شيوخ الحزب الصفين الأماميين وجزءا من الثالث الذى حرص أن يحتل مقعدين منه ، هو وخطيبته ، حتى يكون قريبا من المنصة .

تناثرت الأحاديث الجانبية والتعليقات الهامسة حتى هلّ الباشا بطلعته البهية وعلى يمينه نائبه الذى يقاربه فى السن وعلى يساره رئيس تحرير جريدة الحزب والذى عين أخيراً سكرتيراً للحزب أيضا . جلس ثلاثتهم على المنصة وسط تصفيق الحاضرين وترحيبهم . تجنب الباشا النظر إلى خطيب حفيدته بعد أن لمح عينيه المركزتين عليه . افتتح الجلسة بابتسامة حانية احتوت الجميع :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .. يسعدنى ويشرفنى أن أكون بين زملائى وأصدقائى وإخوتى وأبنائى وبناتى لنبدأ جلسة اليوم التى نفتح فيها عقولنا وقلوبنا كالعادة ، بمنتهى الحرية والديمقراطية ! فالديمقراطية كما تعلمنا ممارسة وليست شعارات مثل تلك التى رفعت من قبل فى أثناء النظام الديكتاتورى الشمولى الذى جثم على كاهل البلاد أكثر من ثلاثين عاما ، وكانت الممارسات الفعلية هى النقيض لكل هذه الشعارات ! ويكفى لحزبنا الفخر بأنه يمارس الديمقراطية داخله ويسعى إلى نشرها خارجه لتعم كل ربوع البلاد ، فليس هناك حزب فى المنطقة العربية له تاريخ طويل وعريق فى الممارسة الديمقراطية مثل حزبنا .

فتح الباشا الملف الموضوع أمامه وتصفح أوراقه وهو يقول دون أن ينظر

إلى الجالسين :

ـ أمامنا في جدول الأعمال اليوم الموضوعات الخطيرة التى اقترحها وتقدم بها السادة الأعضاء وأطرحها أمام حضراتكم للمناقشة والدراسة وأولها .. إلغاء حالة الطورىء والأحكام العرفيه .. وتطبيق قانون من أين لك هذا .. وإطلاق حرية التجارة وملكية الأراضى الزراعية .. وبيع شركات القطاع العام لمن يرغب فى شرائها من تجار القطاع الخاص .. وفتح باب الاستثمار العربى والأجنبى بدون شروط .. وإنشاء فروع جديدة للحزب فى بعض المحافظات .. وتحويل جريدة الحزب الأسبوعية إلى جريدة يومية وشراء مطبعة خاصة بها .. وإصدار كتب عن تاريخ الحزب ومواقفه ورجاله .. وأخيرا قائمة بأسماء الراغبين في الانضمام إلى الحزب وعلى رأسها كاتب يسارى كبير سأحتفظ باسمه مفاجأة حتى نهاية الاجتماع .. فهو أكبر دليل دامغ على أن اليسار قد أدرك خطأه وشرع فى العودة من طريق الضلال إلى سبيل الحق ..

صمت الباشا ليلتقط أنفاسه ويتجرع شربة ماء من كوب بللورى أمامه . تخلص صاحبنا من يد خطيبته ونهض قائلا بصوت جهورى :

ـ فليسمح لى سعادة الباشا بأن أعلق على المشروعات الثلاثة التى كنت قد تقدمت بها للمناقشة بعد دراستها مع خبراء الحزب فى محو الأمية والتنمية الزراعية والصناعية وتحديد النسل .

قاطعه الباشا بحدة حاول كتمانها :

– لم نفتح باب المناقشة بعد !

– كل ما أطلبه إدارج المشروعات الثلاثة فى جدول الأعمال .. وكل الخبراء الذين اشتركوا فى دراستها موجودون الآن !

قالها وهو يمسح بنظراته الجالسين حوله ، لكن الباشا قال :

– جدول الأعمال اليوم مزدحم ولا يسمح ببنود جديدة !

– هذه ليست بنودا جديدة .. فقد مضى عليها أكثر من سنة ونصف ولم تدرج منذ ذلك الحين !

– هناك أولويات استراتيجية لابد أن توضع فى الاعتبار ! فكل هذه المشروعات مستحيلة بدون ترشيخ الديمقراطية والتخلص من البيروقراطية التى تقف بالمرصاد لكل مشروعاتنا حتى تثبت فشل المعارضة ! فنحن لا نملك أية مساحة سواء فى الراديو أو التليفزيون حتى لا نصل إلى الجماهير العريضة فى قواعدها الشعبية !

– المسألة ليست دعاية إعلامية بالدرجة الأولى .. وإنما العبرة بالتنفيذ العملى .. وخطوة عملية واحدة بألف ساعة إعلامية !

– المواكبة الإعلامية فى هذا العصر ضرورة ملحة لكل خطوة عملية !.

– وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة !

– لا أحب ذكر هذه الأمثال الشيوعية فى حزبنا !

– أنا آخر إنسان على وجه الأرض يمكن أن يتهم بالشيوعية !

عاد الباشا إلى تقليب أوراق الملف بأصابع مشدودة :

– فلنعد إلى جدول الأعمال !

تحسس صاحبنا الخطاب فى جيبه وواصل زحفه :

– سعادتكم تطالبون بنشر الديمقراطية وترسيخها .. لكنها محاولة مستحيلة مع انتشار الأمية .. كيف نمارس الديمقراطية ونحن شعب يستورد أكثر مما يصدر .. يأكل ويستهلك أكثر مما ينتج .. ومع ذلك نتكاثر كل عام بما يزيد على تعداد دولة صغيرة .. فهناك من الدول الصغيرة ما لا يزيد تعدادها على مليونين .. عندما نطالب بالديمقراطية قبل الشروع فى تلبية هذه الاحتياجات المادية .. فإننا بهذا نضع العربة أمام الحصان .. وحقائق العصر تقول بل وتؤكد على أنه لا ديمقراطية ولا حرية ولا كرامة لجائع أو جاهل .. وخير لنا أن ننتشر بين الناس .. نمحو أميتهم .. ونعلمهم إقامة المشروعات الزراعية والصناعية الصغيرة المنتجة المثمرة .. وكيفية استصلاح الأراضى البور بأرخص الوسائل وأسرعها .. وأن النسل غير المنتج وغير المتعلم ورم يصيب جسد الأمة ويدمر خلاياه .. فإذا نجحنا فى مجرد الشروع فى هذه الخطوات فإن الديمقراطية

والحرية ستأتى من تلقاء نفسها .. ولن يكون لحزبنا أى دور تاريخي إلا إذا شعر به الناس البسطاء وهو يشبع احتياجاتهم المادية ويطور حياتهم نحو الأفضل .. أما فيما عدا هذا فسيظل وجودنا قاصراً على صفحات جريدتنا ونشراتنا وندواتنا واجتماعاتنا !

صمت ليلتقط أنفاسه المبهورة ، فسرى السكون حتى كادت الأنفاس أن تسمع ! خرج صوت الباشا متهدجاً :

– لا يمكن تنفيذ أى اقتراح من خلال الفوضى .. وأنت بسلوكك هذا أهدرت قيمة من أخطر قيم حزبنا .. ألا وهى النظام !! لم نفتح بعد باب المناقشة .. كما أننى لم أمنحك حق الكلام .. كما أن مشروعاتك غير مدرجة فى جدول الأعمال .. ومع ذلك لم أقاطعك وتركتك تقول ما تشاء دون حجر عليك حتى أشعرك بمدى سماحة الديمقراطية .. لكن هذا استثناء نادر لن يتكرر مرة أخرى لأن أحداً لن يسمح به .. النظام أولا وأخيراً !!

تحسس صاحبنا الخطاب فى جيبه ثم أخرجه وهو يقول بمنتهى الهدوء :

– وأنا بدورى لن أتسبب لسعادتكم فى أى حرج أو ضيق .. واغفروا لى ما بدر منى .. لكنها كانت الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تصل بآرائى وموقفى إلى الجميع .. ولن أتنازل عنها .. وهذا حقى الذى تخوله لى الممارسة الديمقراطية التى تسمح أيضا بأن أقدم استقالتى !

ثم تقدم وسط السكون الرهيب بالخطاب حتى بلغ المنصة ووضعه أمامه :

– شكراً .. وأتمنى لسعادتكم وللحزب كل توفيق !

ثم عاد أدراجه ودقات حذائه على الأرض تردد صداها الجدران ، فى حين تجسد الذهول والهلع على وجه خطيبته الرقيق وفى عينيها الخضراوين الداكنتين اللتين ترددتا فى حمى مجنونة بين جدها القابع على المنصة وبين خطيبها السائر بخطوات ثابتة صوب الباب وقد شدت العيون إليه بخيوط من سلك محمى حتى خرج منه .

نهضت الخطيبة لتلهث فى أعقابه لكنها توقفت فجأة عند باب القاعة لتعود

منطلقة إلى جدها لكنها توقفت عند المنصة لتجهش بالبكاء وتنطلق كالغزال الجريح إلى الباب الذى اخترقته لكنها لم تره . سمعت فقط محرك سيارته وهى تنطلق بعيداً !

* * *

فرسان المائدة المحطمة

اشتهر بلده بأنه بلد الانقلابات العسكرية المتوالية ، لدرجة أنه أطلق عليه على سبيل التندر : بلد من يستيقظ مبكراً !! فأى قائد لواء أو كتيبة أو سرب يمكنه أن يستولى على الحكم لو شعر للحظة واحدة أن الجالس على الكرسى قد أغمض عينيه مطمئناً إلى أن كل الأمور قد دانت له ! عندئذ تتوالى البيانات سواء من الراديو أو التليفزيون تبشر الجماهير القلقة المتوترة بعهد الحرية والكرامة والنور القادم فى أعقاب عصر العبودية والمهانة والظلام ، وتطلب منها السكينة والهدوء والالتزام بحظر التجول وغيره من أوامر الثورة الجديدة لحين صدور إشعار آخر ! وبين كل بيان وآخر تصدح موسيقى المارشات العسكرية والأناشيد الوطنية التى اعتاد الناس سماعها مع كل انقلاب ! فهى ليست خاصة بانقلاب معين لأنها تخاطب الجماهير وتتغزل فى الوطن وتبشر بالمستقبل المشرق المزدهر . وقد يأتى الانقلاب الجديد بنشيد أو نشيدين من المتحمسين له ، لكنه إذا حمل دلالة خاصة مرتبطة بالانقلاب السابق ، فإن الانقلاب الجديد لا بد أن يخسف بمثل هذا النشيد الأرض .

اعتاد الناس هذه الانقلابات حتى الانقلاب الأخير الذى وقع منذ عشرين عاماً واستقر قائده فى الحكم بعد أن أصدر فتوى بأنه ثورة التحرير والتقدم ولا يمت إلى الانقلاب بصلة . فقد كان متقناً بحيث لم يترك ثغرة واحدة يمكن أن ينفذ منها أى خصم أو عدو محتمل . ويبدو أن قائد الانقلاب أراد أن يؤمنه من الداخل أيضاً فانفرد بمن ساندوه ، الواحد بعد الآخر ، حتى كان آخرهم عدنان الذى خرج من السجن بعد قضاء عشرين عاماً فيه دون جريرة ارتكبها سوى إخلاصه المطلق له ! لدرجة أنه أخبره ذات مرة على سبيل الدعابة الحميمة أن كلمة « النقاء الثورى » قد خلقت له ، فهو بحق يده اليمنى فى توجيه فرسان المائدة المستديرة كما كان يحب أن يطلق على المجموعة التى قامت معه بالانقلاب .

كان عدنان واثقاً من أن الطعنات الغادرة لن تأتيه من أى جانب . فلم تكن له أية طموحات أبعد من نجاح الثورة التى كانت حلم حياته الذهبى ! وهو ما عهد فى أسرته ذات التاريخ الطويل فى الكفاح الثورى منذ اشتراكها فى الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك عام ١٩١٦ . ولذلك كان سعيداً بأية مهمة يوكل بها الرئيس منذر إليه دون أية تطلعات إلى منصب أو مركز معين !

لكن هل يمكن أن تلعب الغيرة دوراً انتقامياً إلى هذا الحد الذى يجعله يقضى عشرين سنة فى السجن ليخرج منه حطاماً بشرياً ؟ ! حتى قصة غرام الأميرة جنفييف زوجة الملك آرثر قائد فرسان المائدة المستديرة بأحد فرسانه لم تثر كل هذه الأحقاد التي ثارت بينه وبين منذر الذى كان مغرما بالتشبه به ! خاصة وأن السيدة التى أحبت عدنان كانت مطلقة منذر ! ولذلك خرج عدنان من السجن وهو غير مقتنع بسبب جوهرى واحد يبرر له ضياع أجمل سنى عمره بهذا الشكل ! وود لو نجح فى لقاء منذر ليخبره به ! كان على استعداد أن يدفع ما تبقى من عمره مقابل معرفة السبب ! لكن كيف السبيل إليه بعد أن ارتفعت بينهما الأحقاد والخصومات حتى أصبحت سلسلة من الجبال الشامخة ذات القمم الزلقة المدببة ؟ !

كانا متطابقين فى كل الآراء السياسية حتى فى رفضهما لمبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » الذى ارتبط باسم السياسى الإيطالى الشهير ماكيافيللى والذى نظّر له فى كتابه « الأمير » . لم يقرأ عدنان الكتاب لأنه رفض مؤلفه منذ البداية ، أما منذر فقد استعاره منه ليقرأه كله ويعيده إليه وهو أشد نفوراً منه ، من انتهازية ماكيافيللى ، ومنذ ذلك الحين البعيد ظل كتاب « الأمير » فى مكانه على رف المكتبة التى تواجهه الآن فى جلسته فى غرفة مكتبه التى يكاد يفترشها تراب عشرين عاما !

لم يتبق له سوى الماضى حياة متجددة له ! أين أنت يا هند ؟ ! لقد قال كل الناس إن قصة الحب المشتعلة بينه وبين هند ثم زواجه منها هى التى ألهبت غيرة منذر فاخترع حكاية مؤامرة عدنان لقلب نظام الحكم . وبرغم أن كل المستندات التى كانت تحت يد المحكمة العسكرية كانت مزيفة ، كما كانت

إجراءات القبض عليه وضبطه متلبساً ملفقة ، فقد حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص ثم خفف منذر الحكم بنفسه إلى السجن عشرين عاماً قضاها بالتمام والكمال !

كان منذر نرجسياً من الطراز الأول ! لا يحب إلا نفسه ، ولا يعجب إلا بعبقريته ، ولا يؤمن إلا بعقله الملهم ! فليس هو الذى يجعل من امرأة – مهما كانت جميلة وساحرة مثل هند - قضية عمره ! بل إنه طلقها عندما استشعر مدى شعبيتها المتنامية بين الجماهير ، خاصة النساء اللاتى وجدن فيها قائدة ذات فكر عميق ، وثقافة شاملة ، ونظرة ثاقبة ، بالإضافة طبعاً إلى جدائلها الذهبية التى تضاهى وميض الشمس فى أيام الربيع الفيحاء ؛ وبريق عينيها الذى يحاكى بحيرات السحر الحلال ، وقدها المياس المرمرى كأنها حورية خرجت من وسط أمواج أسطورية إغريقية . فكانت المثل الأعلى فى عيون النساء اللاتى قلدنها فى كل شىء ، والحلم السارى فى وجدان الرجال ،يلهمهم بأروع الأفكار وأجمل المشاعر . يبدو أن منذراً لم يحتمل وجود مخلوقة مضيئة مشعة مثلها إلى جواره ، تشاركه الرأى والمشورة ،بل وتبدى مقترحاتها من خلال تصريحاتها للصحف والإذاعات ، خاصة أن آراءها الثورية المتفجرة والموضوعية فى الوقت نفسه كانت تتطابق مع آرائى لدرجة أنه قال لها ذات مرة قبل وقوع الطلاق بحوالى شهر :

– لا أعرف من منكما صدى للآخر ؟ ! أنت أم عدنان ؟ !

وتم الطلاق وسط ذهول البعيدين عن دائرة السلطة وفلكها . لكن التواصل الفكرى والروحى بينها وبين عدنان استمر ونما ، فهى ليست بالمرأة التى تقبع فى دارها كسيرة النفس ، كسيفة البال لأن زوجها طلقها ! فواصلت نشاطها فى دوائر المرأة والطفولة والإعلام ، ولم يشكل المال عقبة فى طريقها فقد كانت من أعرق وأغنى الأسر فى البلد .

تضاعف إعجاب عدنان بهند ، وهو الإعجاب الذى اكتسح فى طريقه كل حساسية ممكنة كان يمكن أن تجعله يتردد فى الارتباط بها .فمن حقه ومن حقها أن يقيما الأسرة المنشودة مثل أى رجل وامرأة عاديين ، وليس هذا بكثير

على اثنين قدما للبلد خدمات قومية لابد أن يسجلها التاريخ . وإن كان منذر يصر على فرض وصايته على كل كبيرة وصغيرة ،ولا تفوته أية شاردة أو واردة ، فقد أحاطه عدنان علما بنيتهما على الزواج ، فإذ به يبارك المشروع ويتمنى لهما حياة سعيدة مديدة !

كان حماس منذر متدفقاً أكثر من اللازم وكأنه كان فى انتظار هذه الخطوة على أحر من جمر ، مما أثار ريبة غامضة شائكة فى عدنان الذى نقلها بدوره إلى هند التى أخذت الأمر ببساطتها العذبة وعلقت عليه ضاحكة :

– قد نرضخ لآراء منذر فى السياسة والحكم .. لكننا لن نسمح له بالدخول فى دنيانا الصغيرة التى لا يملكها أحد سوانا!

وتم عقد الزواج ، وسرق عدنان وهند أجمل أيام عمرهما فى غفلة من الزمن جعلته يتخلص من كل شكوكه فى منذر ، خاصة تلك التى دارت حول تخلصه من رفاق الثورة ، الواحد بعد الآخر ! لابد أن أجهزته قدمت له ما يبرر هذه الخطوات حفاظاً على مسيرة الثورة ! يكفى أنه تقبل زواجه من هند بهذه الروح الرياضية ، وإن كان قد اعتذر عن عدم حضور عقد القران .

لكن الشائعات سرت فى البلد فجأة مسرى النار فى الهشيم ! لاكت الألسنة أخباراً سخيفة حول الصراع الذى دار بين عدنان ومنذر حول هند ، وأن منذراً ينوى الانتقام من عدنان الذى سد أذنيه فى مواجهة كل هذا الهراء ! فمنذر لم يتخلص منه طوال السنوات الماضية لأسباب سياسية أو قومية ، بعد أن تخلص من كل الرفاق ، فهل يعقل أن يلقى به إلى خارج الحلبة لأسباب شخصية تافهة ، لمجرد أنه تزوج من مطلقته التى لم يجبره أحد على تطليقها ، بل كان الجميع يحسدونه عليها ؟ ! وهل كان أحد بقادر على أن يجبره على فعل أى شىء وهو الذى اعتاد أن يأمر فيطاع على الفور ؟ ! وهل يعقل أن يكون جهاز الشائعات فى الاستخبارات هو مصدر هذه الشائعات السخيفة التى لا معنى لها ؟ !

ومع ذلك جاءت الضربة من حيث لا يتوقع أبداً وبدون أى مبرر ! فجأة تم القبض عليه فى ليلة ليلاء . انتزع من فراشه بملابس النوم وسط هلع هند ،

وألقى به فى عربة السجن المنتظرة فى صقيع الشارع . ومنذ تلك اللحظة لم ير هند وإن كان قد سمع عنها شيئاً . وانقطعت صلته تماماً بالدنيا حتى ليلة المحاكمة عندما زاره محام انتدبته السلطة للدفاع عنه فى التهمة التى لا يعلم عنها شيئاً ! وإذ بها تهمة الخيانة العظمى لتزعمه انقلاب للحكم جند فيه ثلاثة من رفاق الثورة الذين سبق أن تخلص منهم منذر وطواهم الظل !

أصاب الذهول عقل عدنان الذى لم يفقد قدرته على التفكير المنظم فى أحلك الأوقات ، ولم يجد ما يقوله للمحامى سوى :

– إذا كان منذر يريد أن يعدمنى .. فليفعل دون محاكمات ومسرحيات لا لزوم لها .. فقد فقدت حتى مجرد الرغبة فى معرفة الدافع لإلصاق هذه التهمة بى .. لأن الأمور إذا بلغت هذا الحد فلا لزوم للحياة نفسها !

جمع المحامى أوراقه وأغلق الحقيبة ونهض قائلا :

– أرى سيادتك غداً فى المحكمة !!

ودوت أرجاء المحكمة بمرافعات ممثلى النيابة والدفاع وسط ومضات آلات التصوير ، وميكروفونات الإذاعة وكاميرات التليفزيون والسينما ، وأقلام الصحفيين والمراسلين . وعدنان لا يكاد يعى شيئاً ولا يريد أن يعى ، فقد كانت رغبته فى الموت ملحة ! حتى الكلمات التى تبادلها فى قفص الاتهام مع الرفاق لم تكن ذات معنى ، بل لمح فى نظرات اثنين منهم ومضات التشفى وكأنها تقول :

– أخيراً .. جاء الدور عليك وكنت تظن أنك بمنأى عنه !!

وتوالت جلسات المحاكمات التى سرعان ما توقفت لإصدار الحكم عندما نطق عدنان بجملته الوحيدة فى آخر جلسة :

– إذا كان منذر يريد أن يعدمنى .. فليفعل دون محاكمات ومسرحيات لا لزوم لها !

وحذفت الجملة بالطبع من كل أجهزة الإعلام وإن كانت الألسنة قد تناقلتها بأسرع من هذه الأجهزة ، ومعها جملة قالها أحد الرفاق لعدنان فى القفص

قبل بدء الجلسة الأخيرة والتقطتها أذن صحفى قريب منه ثم كانت حديث الصحفيين والمواطنين بعدهم . قال الرفيق لعدنان بمنتهى السخرية المريرة :

–ما ذنبنا نحن إذا كان منذر قد ندم على تطليق هند ؟ ! هل كتب علينا أن ندفع ثمن طلاقه وزواجه ؟ !

لكن عدنان كان قد عاد إلى صمته حتى فى جلسة الحكم عليه رمياً بالرصاص بصفته المتهم الأول وزعيم المؤامرة ، فى حين تراوح الحكم على الرفاق بالسجن بين عشرين وعشر سنوات . ثم تفضل الزعيم الملهم منذر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد ، وبعد ذلك بخمس سنوات أفرج عن الرفاق لأسباب صحية فى حين ظل عدنان فى السجن حتى السنة العشرين ولم تكن صحته بأفضل منهم على الإطلاق !

وها هو الآن جالس فى شقته التى عاد إليها بعد غياب عشرين عاماً ، وخاطر ممض يلح عليه :

– إذا كنت يا منذر قد حطمت المائدة على رأسى .. فإنك لم تحطم رأسى بعد .. وطالما أن رأسى لا يزال على كتفى فسأستخدمه ضدك حتى النهاية .. لكن كيف ؟ ! كيف ؟ !

دق المكتب أمامه بيده فى عنف جعله يستشعر القوة التى لا تزال كامنة فيه برغم المحنة ! لابد أن يعرف أخبار هند أولا ! هل طلقت فى غيبته ؟ ! هل لا تزال على قيد الحياة ؟ ! فى بداية سجنه أخبره أحد الحراس خلسة أن هند استطاعت الهرب إلى القاهرة وعملت هناك فى مقر جامعة الدول العربية !

– آه يا قاهرتى الحبيبة ! كم أنا مشتاق إليك ؟ !لا أعرف لماذا قتلنى الحنين إليك طوال أيام السجن ولياليه ! عشنا فى أحضانك أيام الإعداد للثورة فلم تبخلى علينا بشىء ! نمنا فى حمايتك هرباً من بطش الديكتاتور السابق ولم نكن نعلم أن بيننا من سيكون أبشع منه ! لا أنسى ليالى سميراميس حتى الصباح سواء فى القاعة الداخلية أو فى الشرفة المطلة على النيل الأسمر الحبيب ! أو جلسات قهوة ريش وكازينو قصر النيل وأوبرا وإنديانا ! كيف أشعر فى وطنى بالغربة فى حين تهفو روحى إلى

القاهرة ؟ ! هل لوجود هند فيها ؟ ! لكن القاهرة كانت معشوقتى قبل هند !!
يا لذكريات تتدفق علىّ هذا الصباح كما لو كنت قد تركت هند بالأمس !! لكن
كيف الهروب إلى القاهرة ولابد أن عيون منذر تحيط بى من كل جانب منذ خروجى
من السجن ؟ ! هل يمكن أن يكون شعورى أقوى بعد خروجى منه ؟ ! لابد أن
أخرج من هذه الحيرة لأستعيد توازنى ! الحيرة التى أصابت الناس جميعاً بخصوص
محنتى ! فلم يكن هناك سبب واحد مقنع كفيل بالارتكاز عليه وحسم القضية !
سواء أكانت أكذوبة المؤامرة لقلب نظام الحكم أو غيرة منذر من زواجى بهند ؟ !
فإخلاصى لمنذر كان فوق مستوى الشبهات ،ومساندتى له كانت نعم الدعم
والتآزر ،ولم يقع بينى وبينه أى صراع أو منافسة أو حتى مجرد سوء تفاهم مثل
ذلك الذى جرى بينه وبين الرفاق الآخرين ؟ ! هل يمكن أن تفعل وشاية حاقدة
حقيرة كل ما أصاب صديق عمره ورفيق دربه دون أن يكلف نفسه مشقة سؤاله
والاستفسار منه ، أو التحرى بدقة على أبسط الفروض ؟ ! هل يمكن أن تؤخذ
مصائر البشر بهذه البساطة ؟ ! إذا كانت هذه هى السياسة فى الدول الديكتاتورية ،
فلتذهب السياسة إلى الجحيم ! ويا لضيعة من تزين له نفسه الاشتراك فى هذه اللعبة
الغادرة على أمل أن يصبح بطل أمته عند نجاح الثورة ؟ ! إن حالة الإجهاض الدائمة
التى نعيشها تقتل البطل قبل أن يولد ، ولذلك أصبحت البطولة السائدة والمفروضة
على الجميع هى الوجه الآخر للتآمر والانتهازية والخبث والدهاء والطعن فى الخلف
والسير على جثث الآخرين والجلوس على عرش من جماجمهم ! لقد ذهب زمن
الفروسية إلى غير رجعة ، ورحل الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة إلى دنيا
الأساطير ، ولم يتبق منهم سوى الشعارات البراقة التى تختفى تحتها الخناجر
المسمومة !

لكن كيف يبدأ وهو وحيد ، أعزل ، مهجور ، يخاف الآخرون الاقتراب
منه حتى لا يؤخذوا بجريرته ؟ ! آه لو يغمض عينيه ويفتحهما ليجد نفسه فى
القاهرة حيث الأمان والدفء والحب وهند ؟ ! هل دانت كل الأمور لمنذر
بحيث أصبح يحصى الأنفاس أيضاً ؟ ! أليس لهذا الليل من آخر ؟ ! إن سنة

الكون التطور فى كل شيء والحركة فى كل الموجودات فهل استطاع منذر أن يتحدى قوانين الكون ؟ !

عادت عينا عدنان لتمسحا كعوب كتبه المرصوصة على رفوف المكتبة فتوقفتا عند كتاب « الأمير » لمكيافيللى الذى استعاره منه منذر منذ أكثر من ربع قرن وأعاده إليه مبديا اشمئزازه من آرائه الانتهازية التى تجعل الغاية تبرر الوسيلة ، لكن عدنان لم يجد لمنذر مثيلا فى انتهازيته وزيفه !

نهض عدنان ليسحب الكتاب وينفض عنه الغبار ويقلب صفحاته ، فإذ بعينيه تجحظان عند بداية الفصل الثالث ، ويهرع إلى مقعده ليقرأ تحت عنوان « الإمارات الجديدة » أن أول عقبة تواجهها أية إمارة جديدة عقبة طبيعية ، فالناس يتحمسون لتغيير أميرهم أو ملكهم أو ولى الأمر فيهم ، عندما يأملون فى تحسين أحوالهم ، وحين يتسلط عليهم هذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضده . وهم بهذا يخدعون أنفسهم ، لأنهم فيما بعد يكتشفون بالتجربة أن أحوالهم قد ساءت . وهذا الوضع ناجم عن حتمية أخرى طبيعية ونمطية ، ألا وهى أن الإنسان لابد وأن ينزل الأذى دائماً بمن يفرض نفسه عليه إذا لم ينجح فى استخدامه لحسابه ، وبهذا تكتسب كأعداء لك كل من أنزلت بهم الضرر باستيلائك على تلك الإمارة ، كما أنك لا تستطيع الاعتماد على من وضعوك فى دست الإمارة كأصدقاء لك ، لأنك لن تستطيع إرضاءهم بالدرجة التى كانوا يأملون فيها ، ولأنك لن تستطيع أن تردعهم بناجع الدواء باعتبارك مدينا لهم . فالمرء مهما بلغت قوة جيشه ، بحاجة دائما إلى إرضاء الأهالى حين يفتح منطقة من المناطق . لكنه قد يجد نفسه مضطرا إلى إبادة كل جيوب المقاومة القديمة التى ساعدته هو نفسه فى بلوغ القمة ! إن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بحاكم ، وطنيا كان أو أجنبياً ، إذا أنت من المظالم وتوهمت أن حالها سوف تتحسن فى ظل الأمير الجديد ، ولكنها لا تلبث أن تفيق من وهمها حين تكتشف أنها تسير من سيىء إلى أسوأ فتثور من جديد لطرد الحاكم الجديد . ولذلك ينبغى على الحاكم أن يذل الناس أو يسحقهم ، فهم يثأرون لما ينزل بهم

من أضرار تافهة ، أما الأضرار الجسيمة فهم عاجزون عن الانتقام لها . ولذا فالتنكيل بإنسان يجب أن يكون من نوع لا يخشى معه من الانتقام ... .. والضعفاء دائماً ينضمون إلى الفاتح القوى . وإذا أراد الفاتح القوى أن يديم سيطرته فعليه أن يحابى هؤلاء الضعفاء اللائذين به خوفاً منه أو طلبا لحمايتهم من أعدائهم أو من سادتهم القدامى ونفاقاً ومداهنة من أجل المنافع ، ولكن حذار له من أن يسمح لأحدهم بأن يشتد عوده حتى يصبح خطراً . فبقوته الخاصة وبمعونة من هم أقل منه قوة ، يستطيع هذا الأمير الفاتح أن يديم سيطرته على ما فتحه . كذلك حذار أن يتخذ له شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو ليوسع ملكاً . هؤلاء الشركاء أو الحلفاء الأقوياء كفيلون بأن ينتزعوا منه كل شيء !

أغلق عدنان الكتاب وهو يكاد يشهق :

– يا الله !! كم كنت ساذجاً ؟ ! وأنا الذى تصورت نفسى قمة فى النظر الثاقب والرؤية الشاملة !! المسألة ليست غيرة من زواجى بهند ولكنها استغلال لأى ظرف طارىء على سبيل التعمية أو تغطية المنهج الأساسى الذى لا يحيد عنه فى سيره الوئيد عل جثث الآخرين وتربعه على العرش القابع على جماجمهم !

شرد بفكره فى بحور الحيرة والضياع ! هل اعتاد حياة السجن لدرجة أنه عجز عن ممارسة حياة الحرية ؟ ! لكن أين هى هذه الحرية ؟ ! إن البلد سجن كبير والخوف كل الخوف أن تكون جذوة الروح القومى قد خمدت ! يقولون إن روح الشعب لا تموت مهما مر بمحن عاتية ! لكن ما هذا الإحساس بالموات الذى يحيط به من كل جانب ؟ !

سمع صوت شيء يزحف من تحت عقب باب الشقة . نهض فوجد صحيفة الصباح ملقاة خلف الباب . أخذها وفتح الباب فى دهشة فلم يجد أحداً يهبط على درجات السلم . أسرع إلى نافذة غرفة المكتب ففتحها فإذ به يجد بائع الصحف يبتعد مسرعاً نحو المنحنى . نادى عليه حتى ينبهه لهفوته ، فلا يعقل أن يظل اشتراكه فى الجريدة سارياً لأكثر من عشرين عاماً دون أن يسدد رسومه !!لكن البائع كان قد اختفى !

عاد إلى مقعده ليتصفح الجريدة فبدت كأنها جريدة صادرة فى بلد آخر لا يعرف عنه شيئاً . كل الأخبار والتعليقات عن مواقف وشخصيات يقرأ عنها لأول مرة ، ولولا صور منذر ومقابلاته لشك فى قواه العقلية ! لكن ما شد انتباهه أن خبر الإفراج عنه لم ينشر وكأنه أصبح كما مهملا بعد أن كان ملء السمع والبصر منذ عشرين عاما !

قلب الصفحات فى ضيق لعله يلتقط خبراً يهمه ، لكنه فوجئ بورقة مدسوسة فى المنتصف ومكتوب عليها بالآلة الكاتبة :

– تهنئتنا بالخروج من السجن ! هند لا تزال تعمل فى مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة ولا تزال فى انتظارك .. لا تحاول الاتصال بأى أحد عن طريق الهاتف .. أو بالزيارة والسؤال ..هناك خطة جاهزة لتهريبك إلى القاهرة .. سنوافيك بخطواتها خطوة خطوة مع جريدة الصباح كل يوم .. ومعها طعام اليوم .. الزم البيت ولا تتناول الطعام الذى ربما أرسلوه إليك .. لا تقلق .. احفظ المكتوب فى هذه الورقة عن ظهر قلب ثم قم بإحراقها والتخلص من رمادها فى البالوعة .. وإلى صباح الغد بإذن الله ..

أعاد قراءة الورقة عشرات المرات حتى انطبعت صوتا وصورة فى عقله وقلبه ثم قبلها أكثر من مرة وكأنه يقبل هند . ضغط على نفسه وأشعل فيها النار التى أضاءت الحمام بوهج مصحوب بدخان حتى تساقط رمادها فى البالوعة أمام دفقات الماء الملوث بالصدأ من الصنبور الذى لم يفتح منذ عشرين عاماً !

شعر باسترخاء لذيذ فى جسده المشدود فذهب إلى فراشه المترب الذى ظل يتقلب عليه الليلة الماضية دون أمل فى نعاس ولو قصير متقطع . كان على وشك الاتصال ببعض الأقارب والأصدقاء لإبلاغهم بالإفراج عنه لكنه اكتشف أن العزلة هى أروع شىء فى تلك اللحظة وحمد الله على أنه لم يتصل بهم الليلة الماضية عندما وصل إلى شقته . كانت حالة عدم التوازن قد أفقدته القدرة على القيام بعمل أى شىء ! والآن أعادت إليه الورقة السحرية قدرته على حب الحياة التى فرت منه طويلاً !

مد جسده فى الفراش وقد أغمض عينيه وصورة هند تملأ وجدانه بجدائلها الذهبية وإن كان قد دب فيها بعض المشيب ، وبريق عينيها الأزرق وإن كان قد شابه بعض الحزن ، وقدها المياس المرمرى وإن كان قد أصابه بعض النحول . وخلفها بدا النيل متدفقاً جليلاً ، وبرج القاهرة شامخاً يناطح السحاب ، والأهرام راسخة وطيدة ، وأبو الهول يتحدى الزمن !

* * *

درب اللبــانة

بيت الفنانين أو درب اللبانة بالقلعة ، بيت مملوكى عريق يفوح بعبق التاريخ ويحتوى بين أحضانه الداكنة عدة مراسم للفنانين الذين يعيشون على ضربات الفرشاة أو الإزميل ، ويحلمون بأشواق غامضة نائية . وكان مرسم الفنان جميل شوقى أحد المعالم الرئيسية لهذا البيت . فقد كان ملتقى كل الفنانين والمثقفين والكتاب والمفكرين والصحفيين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم بين اليمين واليسار .فقد كان جميل شوقى يؤمن بأن الفن دنيا رحبة قادرة على احتواء الجميع بين أرجائها ، وبأن الجميع خدم فى بلاط صاحب الجلالة : الفكر . أما السياسة فهى مجرد لمحة من هذه الدنيا أو ومضة من هذا البلاط ، قد تظهر وقد تختفى لكنها ليست الجوهر أو الأساس .

كان جميل شوقى آية فى العذوبة والرقة وعشق الحياة فى كل مظاهرها القوية والضعيفة . كان قلبه مفتوحا للجميع مثل مرسمه تماماً . أى أنه لم تكن له قضية سوى قضية الفن . كانت الإنسانية شغله الشاغل ، أما الرأسمالية أو الشيوعية فمجرد مرحلتين من مراحل الفكر الإنسانى لابد أن تتطورا أو تتبدلا طبقاً لسنة التطور التى تتبدى فى كل مظاهر الحياة ! ولذلك كان جميل شوقى يبدو وكأنه إنسان بلا مشكلة من المشكلات التقليدية التى تعتور حياة الناس العاديين فى حياتهم اليومية .

لكن فى فترات التوتر والشد والجذب واهتزاز الهدف أو اختفائه تماماً ، تهل المشكلات بطلعتها الكئيبة وتقتحم على الإنسان عقر داره فيجد نفسه متورطاً فيها دون أن يدرى ! كانت السمعة السائدة لدرب اللبانة منذ أواخر الخمسينيات أنه ملتقى اليساريين والشيوعيين ، وكانت السلطة سعيدة بهذا التجمع ، فهو يشغلهم فى هوايات وأنشطة لا خوف منها وفى الوقت نفسه

يضعفهم باستمرار تحت أعينها ، ويجنبها مشقة تعقبهم . وهذا لا يعنى أن بيت الفنانين كان آمنا بقدر ما كان فى مهب الرياح التى لا يستطيع أحد أن يتنبأ من أية جهة يمكن أن تشرع فى اجتياح كل ما فى طريقها .

ومع ذلك لم يكن جميل شوقى قلقاً . كان واثقاً بأنه فى منأى عن مجرى الأعاصير لعدم وقوعه تحت أى بند من البنود السياسية التقليدية ، كل ما عرفه عن نفسه أنه إنسان وفنان ، وكان يظن أن الآخرين يعرفون ذلك أيضاً ! فلا خوف من إنسان لا يعرف فى حياته سوى الفرشاة والألوان . وسار على هذا المنوال سواء فى درب اللبانة أو فى المجلة التى كان يرسم فيها .

لم يكن أحد يتوقع أن الإعصار سيهب من دمشق التى كانت فى ذلك الوقت عاصمة الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ، إعصار من القوة بحيث اجتاح درب اللبانة فى القاهرة . وقع الشيوعيين السوريون فى تناقض مع السلطة وخاضوا اختبار قوة مع عبد الناصر الذى اعتاد أيضاً اجتياح خصومه كالإعصار . كان فى قمة انتصاره وتألقه فى أيام الوحدة بين مصر وسوريا ، والويل كل الويل لمن يظن فى نفسه القدرة على تحديه ! فابتلع سجن المزة معظم الرءوس الشيوعية السورية فى حين هرب الشيوعى العتيد خالد بكداش إلى بلغاريا ، وعفيف البزرى قائد الجيش إلى موسكو . ولم يكتف عبد الناصر بهذا بل أعلنها حرباً شعواء كعادته من شرفة قصر الضيافة فى دمشق حيث كان الميكروفون يجلجل بصوته المدوى بأكثر من خطبة فى اليوم الواحد . واتهم جميع الشيوعييون فى العالم بأنهم عملاء ، فما كان من خروشوف سكرتير الحزب الشيوعى السوفييتى إلا أن رد عليه بمنتهى السخرية :

– إذا كان كل الشيوعيين عملاء .. فنحن عملاء من ؟ !

هذا برغم الصداقة السوفييتية العربية المتنامية منذ الإنذار السوفييتى بضرب سفن بريطانيا وفرنسا التى كانت تدك بورسعيد ومدن القناة وبعض المدن المصرية سواء بالمدافع أو الطائرات فى أثناء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، ثم توقيع عقد بناء السد العالى ! لكن هذا لم يمنع الوقيعة التى تردد صداها فى درب اللبانة فى عاصفة اعتقالات لكل الشيوعيين وأصدقاء الشيوعيين وأصدقاء أصدقاء الشيوعيين !

بحث البوليس عن جميل شوقى فى البيت ، والمرسم ، والمجلة ولم يجده ! طارت الشائعات كوميض البرق بأنه هرب إلى خارج البلاد وتم إبلاغ المطارات والموانئ وكل المداخل والمخارج ! وهرع زملاؤه فى المجلة ، إلى كل مكان بحثاً عنه حتى لا تلصق به تهمة الهروب من العدالة ، ولكن بلا جدوى . خشوا أن يكون قد وقع له مكروه ، فهو آخر من يهرب ! كانوا مذهولين كيف لهذه النسمة الرقيقة أو الحمامة الوديعة أن تطاردها السلطة بهذا الشكل كما طاردت رصاصات الإنجليز حمامات دنشواى !

عاد أحد زملائه الكبار من البحث العقيم طوال اليوم إلى بيته مجهداً ليجد جميل شوقى فى انتظاره . كان يعود مريضاً قريباً منه فقرر أن يمر عليه فى طريقه ليأنس به على انفراد بعيداً عن دوامة المجلة وزحام المرسم ! لاحظ جميل إجهاد زميله وتوتره فكان على وشك أن يسأله عن السبب ، لكن زميله بلا مقدمات أفرغ ما فى جعبته من أنباء سيئة .. فإذ بجميل يتحول إلى تمثال من ذهول يناجى نفسه بصوت مبحوح :

– تنظيم سياسى .. شيوعى .. غير معقول .. هارب .. مطارات وموانى .. مستحيل .. قل لى إنك تداعبنى !

لم يتخل زميله عن تجهمه :

– إنها لا شك غلطة .. وستجد من يصححها بعد يوم أو يومين !!

– وما العمل الآن ؟ ! لم يسبق لى المرور بتجربة مثل هذه !!

– يستحيل ترك الموقف على ما هو عليه .. فهذا يزيد من الشكوك .. إن خير تصرف يمكن أن تقوم به الآن أن تسلم نفسك للشرطة .. وستخرج بعد ساعة أو ساعتين .. أو يوم أو يومين على أسوأ تقدير !

نظر جميل إلى ساعته فوجدها تقترب من السادسة مساء :

– هل تعرف أحداً فى الشرطة ؟ !

– أتقصد المباحث العامة بوزارة الداخلية ؟ ! أعرف زملاء يعرفون ضباطاً كباراً هناك ؟ !

وبدأ الزميل يتصل بالزملاء والأصدقاء ليدلوه على اسم فى المباحث العامة يقول له :

– إن جميل شوقى هنا !

وبذل الجميع كل ما فى وسعهم لكن بلا جدوى . كان شهر رمضان وكان أذان الإفطار على وشك أن ينطلق مع المدفع وقد انصرف كل المسئولين والموظفين من مكاتبهم . واصلوا الاتصال بأرقامهم فى البيوت ، فكان الرد أنهم نائمون ، ومن الخير الاتصال بعد الإفطار ! وطالما أنه موجود ولم يهرب ، بل وينوى أن يسلم نفسه بنفسه فليس هناك داع للعجلة !

أصبحت مهمة الجميع من خلال الاتصالات التليفونية أن يسلم جميل شوقى نفسه ، بإرادته ، لا أن يقبض عليه ! وبعد ساعة على أكثر تقدير كان معظمهم قد وفد إلى بيت الزميل للوقوف مع حبيبهم فى محنته ، وإن كان بعضهم قد اعتذر لسبب أولآخر خوفاً من الشبهات التى أصبحت تمسك بخناق الجميع . كانوا فى حالة توتر وترقب وذهول دامت ساعات ، لدرجة أن جميل شوقى صرخ وكان على وشك أن يلقى بنفسه إلى الشارع ليلتقطه أى مخبر !

استمر المشهد المأساوى الكوميدى الأسود ساعات مرت كسنوات عجاف ! رسام وفنان لامع وبرىء ، يبحث عمن يقبض عليه ، والذين يريدون القبض عليه يراقبون بيته ومرسمه ومجلته ، وهو غير موجود فى أى منها ! فلا هم قادرون على القبض عليه ، ولا هو قادر على تسليم نفسه ! فقد أصر الزملاء والأصدقاء على أن يتسلمه مسئول يعرف قدره ، ويحسن معاملته ، وليس أى مخبر فى الطريق يزجه فى تخشيبة أى كراكون !

وأخيراً بعد أن هبط الليل ، وانطلق القاهريون إلى سيدنا الحسين ومقهى الفيشاوى وسرادقات الغناء الشعبى لقضاء ليالى رمضان الساحرة ، عثروا على من يمكنه تسلم جميل شوقى الذى هبط مع الأصدقاء ليركب سيارة مضيفه الذى انطلق بها وسط تمنيات الجميع بالتوفيق واللقاء القريب العاجل !

اخترقت السيارة شوارع القاهرة صوب لاظوغلى وأضواء المقاهى والمآذن

والسرادقات تتلألأ حول الساهرين والسائرين ! تذكر جميل شوقى ليالى رمضان الماضية وأمواج نشوتها التى كانت تغرقه مع الأحباب والخلان ، لكن قلبه الحزين المظلم هذه المرة وقع فى بئر تمنى أن يكون لها قرار !

وأمام بوابة مبنى المباحث العامة ، توقفت السيارة ليقبل الصديق صديقه مودعاً على أن يراه غداً ! ودخل جميل شوقى المبنى المهيب بخطوات مرتعشة وقلب واجف سائلاً عن اسم المسئول الذى سيتسلمه ، فاصطحبه شرطى فى الفناء المعتم إلى أن ابتلعهما باب حجرى ذو إضاءة خافتة .

لكن هذا الغد لم يأت إلا بعد سنوات ! وجد جميل نفسه معتقلاً بلا أى سبب ! كانت هناك قوائم بأسماء الشيوعيين والإخوان والإقطاعيين ومن يسمون بأعداء الشعب ، أما جميل فقد أدرج اسمه فى كشف بمفرده ! ظل يسأل لماذا أحضروه إلى هنا ؟ وإلى متى سيظل هكذا ؟ لكن ذهبت أسئلته أدراج الرياح حتى توقف عن السؤال فى السنوات الأخيرة ، وداخله اعتقاد جازم بأن ما جرى له ليس بفعل السلطة ولكنه القدر الذى تجسد فيها ! وعليه أن يستسلم لما تأتى به الأيام إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ! كل ما كان يتمناه ألا تتطور به الأمور ويدخل حجرات التعذيب التى يدخلها الآخرون لإجبارهم على الإدلاء باعترافات تعرى المزيد من أسرار الأيدى التى تعمل فى الخفاء ! فليس لديه ما يقوله ، ولا يملك مجرد القدرة على اختراع أقوال كاذبة قد تورده موارد التهلكة بدلا من أن تنقذه ! كان سلاحه الوحيد فى المعتقل أخلاقه الدمثة المعهودة : العذوبة والرقة والصفاء لدرجة أن قائد المعتقل وصفه بالنسيم العليل ، وسمح له بالأوراق والفرش والألوان حتى يواصل فنه وإبداعه برغم تعليمات المعتقل التى تحظر مثل هذه الأدوات . وامتدت أواصر الصداقة بينه وبين قائد المعتقل والمسئولين عنه لدرجة أنه كان يتوسط لديهم للتخفيف من عقاب بعض المعتقلين . لكن هذه الصداقة الوطيدة لم تمكنه من معرفة سبب اعتقاله إذ اكتشف أن القائد يجهله تماماً مثله عندما صارحه بذلك فى جلسة صفاء رسم له فيها صورته ! فعاد إليه إحساسه بوطأة القدر الجاثم على أنفاسه فى غموض لا يكشف عن أى وجه من وجوهه !

لم يتبق له سوى فنه والذكريات ! وحمد الله على ذلك الخيال الذى ينطلق فوق أسوار المعتقل كى يصول ويجول هنا وهناك دون قيد ، وعلى ذلك الفن الذى يحقق وجوده بالألوان على الورق . كم حلم بمرسمه فى درب اللبانة ، بل وبرائحة العفن المنبعثة من بئر السلم الحجرى المعتم فى أيام الحر المشبعة بالرطوبة !! كم حلم بمكتبه فى المجلة وأحاديث الصحاب والزملاء حول قضايا الثقافة والفن والفكر !! وكم شكر الله على أن ارتباطه بإحدى الزميلات لم يصل إلى حد الزواج ، وإلا ماذا كان يمكن أن تكون حالها الآن ، وهو الذى لا يحتمل أن تنام قطة فى حديقة منزله جائعة ؟ !

مرت الأيام نسخا مكررة من بعضها بعضاً ! وهذه نعمة كبيرة من عند الله فالملل خير ألف مرة من التعذيب ! توقف عن كتابة عرائض الشكوى التى وصف فيها تفاصيل حياته وأخص دقائقها حتى يساعد المسئولين على التحرى والتأكد من أنه خال من أية تهمة أو حتى شبهة ! كان القائد يتسلم منه الشكوى مع وعد أكيد بتوصيلها ، لكن النتيجة بلا جدوى ! لا حياة لمن تنادى ! وجثم على كاهله إحساسه بغموض القدر الذى لا يرى فى الإنسان سوى لعبة يتسلى بها من الملل الأبدى !

لم يحاول أن يضغط على القدر أكثر من هذا ، ولا حتى أن يغازله أو يداهنه أو يتملقه أو يتمسح به ! إذ أنه يرفض مجرد الإفصاح عن سبب اعتقاله ! فليتكلم وقتما يشاء فالأمور أوشكت على أن تستوى بين داخل المعتقل وخارجه ! فقد جميل الأمل المعذب تماما وشرع فى مصاحبة اليأس والائتناس به !

عندئذ تكلم القدر الذى يرى فى تعلق الإنسان بالأمل تحدياً سافراً له ! هكذا خيل لجميل الذى عرف من القائد أن النية تتجه للإفراج عن اليساريين والشيوعيين بعد أن عادت العلاقات العربية السوفيتية إلى أوجها مرة أخرى بعد انتكاسة الشيوعية فى الإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة . فقد وقع الانفصال ولم تعد مصر مسئولة عما يجرى فى سوريا ، ومضى مشروع السد العالى على قدم وساق بالتمويل والخبرة السوفييتية ، وآن الأوان لتحويل مجرى نهرا النيل ، وتمت دعوة الزعيم نيكيتا خروشوف لأول زيارة له لمصر اعترافاً

بفضل السوفييت في هذا المشروع القومى الكبير ! لكن خروشوف لم يرحب بتلبية الدعوة بحجة أنه لا يستطيع أن يزور بلداً يعيش فيه الشيوعيون فيالسجون والمعتقلات ! ومن هنا بدأ إعداد قوائم الشيوعيين وبحث حالاتهم تمهيداً للإفراج عنهم حتى يقبل الزعيم الشيوعى الكبير زيارة مصر .

واستنشق جميل أولى نسائم الحرية ! لكنها فرحة لم تتم ! ذلك أن اسمه ليس مدرجاً فى قوائم الشيوعيين ! عندئذ صرخ كالحمل الذبيح فى وجه القائد :

– لكننى قبض علىّ .. على ذمتهم ! فلماذا لا أخرج معهم !

ربت القائد على كتفه فى حنو آسف :

– أنا نفسى لا أعرف السبب فى القبض عليك .. كما قلت لك من قبل !! قد تكون شبهة الشيوعية لكنها بالتأكيد ليست تهمة الشيوعية ! وشتان بين الشبهة والتهمة !!

– هذا يعنى أننى سأبقى هنا حتى أموت !

– لا أحد يعلم شيئاً عن أى شىء !

– يا ليتنى كنت شيوعياً !! لكنت الآن على أعتاب الحرية !!

قالها جميل دون تفكير ومرارة اليأس تقطر من نبراته ، لكن عينى القائد ومضتا بلمعان غريب وإذ به يخفض من صوته إلى درجة الهمس :

– ليس هناك أسهل من إلصاق أية تهمة بأى إنسان !

لم يدرك جميل ببراءته المعهودة ما يقصده القائد :

– كما حدث لى بالضبط !

– هل كانت رسوماتك وآراؤك أفكارك وأحاديثك وكتاباتك تعبر عن البسطاء والكادحين ؟ !

– بالطبع .. لأننى ببساطة أنتمى إليهم وأشعر بمعاناتهم .. وليس لأننى شيوعى !

– لكنك ستصبح شيوعياً !

– كيف ؟ ! لا أفهم ؟ !

– هل تريد أن تخرج من هنا ؟ !

– سيادتك أدرى الناس بإجابتى عن هذا السؤال !

– الطريقة الوحيدة أن نقوم بتحرياتنا عن أنشطتك واتصالاتك وعلاقاتك وأفكارك .. ثم نثبت أنك شيوعى من أم رأسك إلى اخمص قدميك !!

انبسطت أسارير جميل لأول مرة :

– وبذلك تتحول الشبهة الحائمة إلى تهمة مؤكدة !

– بعد أن يدرج اسمك فى قوائم الشيوعيين !

– وبذلك يفرج عنى معهم !

– هذا صحيح .. لكن لكل شىء ثمناً !

– الحرية لا يعادلها أى شىء فى الوجود !

– ستصبح مثلهم .. تحت رحمة المد والجزر !

– أفضل من أن أكون تحت رحمة مد بلا جزر .. على الأقل هناك من يظهر فى الأفق .. فى لحظة من اللحظات .. ويمد لهم يد العون ويخلصهم مما هم فيه !!

– لكنهم قد يعودون إلى ما كانوا فيه لو أجبرت الظروف هذه اليد على التراجع !

– لكنهم على الأقل يملكون الأمل فى الحرية والخلاص .. أما أنا فلا أمل لى لأننى بلا هوية سياسية !

لم يملك القائد منع ضحكة انطلقت منه عفواً .

– وهكذا تصبح الشيوعية جواز مرورك إلى دنيا الحرية !

كان جميل على وشك أن يجرفه الحوار ليقول :

– بلد العجائب والغرائب !! بسبب عشقى لهذا البلد دخلت المعتقل .. وبسبب انضوائى تحت علم مستورد أجنبى سأخرج منه !

لكنه تعلم الحرص فاستدرك قائلا :

– قد تستغرق التحريات وقتاً طويلاً يكون فيه الإفراج عنهم قد تم .. وبذلك يفوتنى القطار !!

– الإفراج لن يتم قبل أسبوعين أو عشرة أيام .. أما تحرياتنا فلا تستغرق فى حالتك أكثر من أربع وعشرين ساعة !

أخيراً ضحك جميل :

– أيمكننى أن أطمئن بأن التهمة قد لبستنى ؟ !

– من أم رأسك حتى إخمص قدميك !!

وتبادلا ضحكات الصداقة النقية الخالصة . وبات جميل شوقى يحلم بعودته إلى شقته الصغيرة ، ومكتبه فى المجلة ، ومرسمه فى « درب اللبانة » !

* * *

أزمــة وزاريــة

أخيراً تم التغيير الوزارى الذى انتظره الناس طويلاً ، والذى دقت التخمينات بسببه كل الأبواب ، وحامت حول الشخصيات التى قيل إنها كانت مرشحة لكراسى الوزارة الجديدة ، وظلت مرابطة إلى جوار أجهزة التليفون انتظاراً للدقات الموعودة ! لكن معظم التخمينات طاشت ، ودقات الاستدعاء لم تشنف الآذان برنينها الموسيقى الساحر . فقد جاء التغيير كما وكيفاً من خلال الوجوه الجديدة والشابة التى لم ير أحد معظمها من قبل ، وإن كانت أسماؤها قد ترددت من قبل فى مناسبات قليلة .

تولى رئاسة الوزارة الدكتور إسماعيل فوزى الذى لم يتعجل فى اختيار الوزراء الجدد ، لأنه كان ذا استراتيجية محدودة تنهض على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب بصرف النظر عن اية اعتبارات أخرى . ولذلك استغرقت التحريات وقتاً طويلا لتسفر عن واجهة وزارية غير تقليدية على الإطلاق ، فاستبشر الناس خيراً . فهى وزارة علماء وخبراء ، منهم الخبير الدولى الذى عمل فى مقر الأمم المتحدة بنيويورك مثل الدكتور شريف فريد الذى أصبح على رأس خبراء التنمية الغذائية ، خاصة فى مجال الدول النامية .

كان الدكتور إسماعيل فوزى من المهتمين بقضية التنمية الغذائية التى وجد فيها الحل الأمثل لمشكلة الانفجار السكانى . فسارع إلى إنشاء وزارة التنمية الغذائية بحيث تكون حلقة اتصال بين وزارة الزراعة والإصلاح الزراعى ، ووزارة التموين ، ووزارة الشئون الاجتماعية ، ووزارة القوى العاملة ، حتى تجند كل القوى الممكنة لحل مشكلة الغذاء حتى نتحول على المدى الطويل إلى دولة مصدرة كما كانت فى أيام الدولة الرومانية حين سميت مصر « سلة خبز العالم » فلا يعقل أن تكون إمكاناتها الآن أقل وأضعف من إمكاناتها منذ عشرين

قرناً ونيف !

لم يجد رئيس الوزراة الجديد خيراً من الجديد من الدكتور شريف فريد كي يتولى الوزارة الجديدة . كان قد قضى حوالى عشرين عاماً فى أمريكا بعد تخرجه . عمل أستاذاً بالجامعات الأمريكية عشر سنوات التقى فيها بزوجته نهى التى أصبحت أستاذة بجامعة نيويورك فى مجال الانفجار السكانى فى الدول النامية ، وكانا قد أنجبا ابنتهما هالة التى كانت تدرس القانون بنفس الجامعة ، والتى ولدت هناك ولم تر مصر إلا فى زيارات عابرة . لكن الدكتور شريف فريد ترك العمل بالجامعة عندما اختاره السكرتير العام للأمم المتحدة مساعداً له لشئون التنمية الغذائية فى الدول النامية .

عاد الدكتور شريف إلى مصر مع أسرته التى كانت تتفجر حباً وحماساً للوطن الذى أوحشها كثيراً . ولم تكن نهى بأقل حماساًمن زوجها ، فقد كانت خبيرة فى الانفجار السكانى : أخطر قضية تهدد مصر . أما هالة فقد وجدت فى العطلة الصيفية فرصة لإتقان لغة بلدها والتعرف عليها على أن تعود لتواصل دراستها فى جامعة نيويورك .

كان الدكتور شريف قد اعتاد نمطاً معيناً من الإدارة الحديثة التى تذلل أية عقبة فى وقت قياسى ، ولذلك وضع استراتيجية شاملة للوزارة ولم يتبق سوى التطبيق . لم يكن حماسه مجرد فورة عاطفية وإنما كان تخطيطاً علمياً على أحدث مستوى . وكم تساءل فى دهشة :

– ماذا ينقص مصر كى تنطلق ؟ ! إنها تملك كل الإمكانات البشرية والزراعية والصناعية التى تحيلها فى وقت قصير إلى خلية نحل !!

وعندما وقع عليه الاختيار اعتبر نفسه محظوظاً لأن الوزارة جديدة ، وفى إمكانه أن يضع هياكلها الإدارية بنفسه بحيث تصبح أوركسترا متناغماً وما عليه سوى القيام بدور المايسترو . فهى وزارة لا تعانى من رواسب بيروقراطية أو لوائح جامدة أو هياكل متحجرة . وأعاد منصب الوكيل الدائم للوزارة حرصاً منه على استمرار الاستراتيجية بصرف النظر عن تغيير شخص الوزير . ففى دول الحضارة يتغير المسئولون لكن السياسات لا ترتهن بهم وإن كانت تخضع

للمتغيرات . لكن ما أثار دهشة الدكتور شريف أن السيد مفيد الذى شغل منصب الوكيل الدائم ، كان لقبه عند الجميع : مفيد بك ، فقد كان يظن أن هذه الألقاب قد انتهى عهدها بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ !

لكنها كانت مجرد ملاحظة عابرة هامشية ، إذ أن الجميع قد شهدوا لمفيد بك بالخبرة والكفاءة الإدراية . ولذلك أوكل إليه كل الإجراءات التنفيذية الخاصة بتكوين الهياكل الإدارية من أقسام وقطاعات وإدارات وفروع ، وانشغل هو بالاتصال بوزراء الزراعة والإصلاح الزراعى والتموين والشئون الاجتماعية والقوى العاملة للتنسيق فيما بينها فى مجال التنمية الغذائية . وسهر الليالى الطويلة والمتتابعة بين الملفات والمراجع وإلى جواره زوجته الدكتورة نهى تشاركه الرأى والمشورة حتى تكاملت ملامح الصورة وأصبحت جاهزة لإخراجها إلى حيز التنفيذ .

لكن الأمر لم يكن بالبساطة أو السلاسة التى تصورها الدكتور شريف . فقد فوجئ بالوزارة التى لم يمر على إنشائها سوى شهر واحد وقد تكدست الإدارة والفروع بالموظفين الذين هرعوا إليها من الوزارات الأخرى طمعاً فى الترقيات السريعة حيث الدرجات المالية التى وفرتها الدولة فى الباب الأول لميزانيتها من أجل تدعيم الوزارة الجديدة . كذلك فوجىء بعدد كبير من وكلاء الوزارة الذين اخترعوا تخصصات جديدة كى ينفرد كل منهم بواحدة منها : مثل التنمية الغذائية الزراعية والتنمية الصناعية والريفية والحضرية والبدوية والنوبية والشعبية والاستهلاكية والإنتاجية ... . إلخ !!

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل فوجىء بطوفان الموظفين المعينين حديثاً والقادمين من القوى العاملة التى فرحت بالوزارة الجديدة بعد أن اكتظت الوزارات الأخرى بالموظفين وأصبح التعيين يتأخر سنوات عديدة بعد التخرج . عندئذ تحدى التيار محاولا حسم الأمر مع مفيد بصفته الوكيل الدائم :

— كل من ليس له دور فى استراتيجية الوزارة عليه أن يعود من حيث أتى ! فالوزارة ليست ملجأ للعاطلين والطامعين فى الترقيات !

رد الوكيل الدائم بتأنق لفظى واضح :

– يا سيادة الدكتور الوزير .. إنها سياسة قومية عامة .. فالدولة ملتزمة بتعيين كل خريجى الجامعات !

– كانت تعليماتى لك منذ البداية محدودة واضحة !

– تعليمات سيادتك على العين والرأس من فوق .. لكننى لم أجد تعارضاً بينها وبين السياسة القومية العامة !

سأله فى ضيق :

– كيف ؟!

– أتذكر سيادتك فى أول لقاء بيننا كلمتك الرائعة بأنه فى الإمكان دائماً تحويل الكم إلى كيف ؟ ! يمكننا تحويل هذه الأعداد إلى طاقات إنتاجية !

– لكن ليس الآن ! فالوزارة فى طور الإنشاء وفى حاجة إلى الطليعة فقط ! أعد كل من لسنا فى احتياج إليه إلى مكانه !

تحسس الوكيل وقع كلماته فى حرص :

– هناك عقبة إدارية مستحيلة .. فعودة هؤلاء لا تعنى سوى ضياع كل هذه الدرجات المالية من ميزانية الوزارة .. فمن حقهم الخروج بدرجاتهم طالما أننا نحن الذين طردناهم ! والوزارات الأخرى لها شهية مفتوحة لابتلاع هذه الدرجات !

بدا الإصرار على نبرات الوزير :

– إذا كان الأمر هكذا .. فليكن فى علم من جاءوا للترقية أو التهريج فى الوزارة أن ساعات العمل ستكون من الثامنة صباحاً حتى الرابعة مساء بالتمام والكمال .. وسيتم ضبط مواعيد الحضور والانصراف بمنتهى الصرامة .. وسأقوم بنفسى ومعى الوكلاء بزيارات دورية لكنها مفاجئة للإدارات المختلفة .. وسيتم تطبيق مبدأ العقاب على المهمل أو المخطئ ومكافأة المنتج .. لن تكون هناك ترقيات منتظمة وعلاوات دورية وحوافز ثابتة .. كل ذلك سيرتبط بالإنتاج .. كما أن الوزارة لن تصبح مجرد ديوان فى القاهرة بإدارات ومكاتب مكدسة بمن لا عمل لهم .. لقد اتصلت بالسادة المحافظين الذين خصصوا لنا

مواقع للعمل الميدانى فى الريف والصحراء والأماكن النائية !

صمت الوزير ليلتقط أنفاسه فما كان من الوكيل سوى أن قال :

– أوامر سيادتك ستنفذ بالحرف الواحد !

وقام مفيد بك بتطبيقها بمنتهى الصرامة ليس إيماناً بفلسفة الوزير ، ولكن لأنه أراد أن يفجر الموقف ضده ! كان مفيد بك ضمن الذين رشحتهم الشائعات لتولى الوزارة الجديدة ، وظل إلى جوار التليفون اكثر من عشرة أيام يقفز فيها مع كل دقة جديدة لدرجة أنه فى الأيام الأخيرة لم يعرف الفرق بين دقات قلبه ودقات التليفون !! وعندما انقض الدكتور شريف على الغنيمة ، شعر بطعنة نجلاء فى قلبه ، لم يخفف منها سوى تعيينه فى منصب الوكيل الدائم الذى لم تعرفه مصر منذ عشرات السنوات . لكنه لم يستطع نزع شوكة الغيرة من قلبه ، وظل يحلم وهو يتحين الفرص لقلب المائدة على رأس المغتصب .

فوجئ الدكتور شريف بهجوم إحدى صحف المعارضة عليه ، واتهمته بتدمير المكاسب الاشتراكية وفى مقدمتها التزام الدولة بتعيين الخريجين بدلا من تركهم طاقات معطلة ، فهو يريد تحويل الوزارة إلى عزبة خاصة به ، والعاملين فيها إلى أجراء وعبيد يطردهم وقتما يشاء ! لكن الدكتور شريف أخذ الأمر ببساطة ،فهذه هى الديمقراطية ، فلم يكلف نفسه حتى مجرد التحرى عمن أدلى بهذه المعلومات لصحيفة المعارضة !

أما رشدى بك مدير مكتب الوزير فكان مشفقا على الوزير من كل الإجراءات التى اتخذها والتى بالغ مفيد بك فى تطبيقها على أساس أنها أوامر الوزير التى لا راد لها ، والتى أكسبته عداوات كثيرة سواء على مستوى كبار الموظفين أو صغارهم ! ولذلك حاول رشدى بك أن يشرح للوزير أن السنوات العشرين التى عاشها بعيداً عن مصر قد أنسته أسلوب الإدارة فيها . فلا يزال جسد مصر مثخناً بالجراح بعد خوضها ثلاث حروب استنزفتها تماماً . فحتى مجرد الحضور والانصراف فى القاهرة أصبح مأساة للعاملين وخاصة الصغار منهم ! فكيف يجازى ويعاقب عن حضوره متأخراً من لا يجد وسيلة مواصلات تحمله فى الوقت المناسب ؟ ! وقس على ذلك !!

لكن الوزير أصم أذنيه فى وجه هذه النصيحة على أساس أنه لو أخذ بها لكان من الأفضل والأشرف له أن يترك موقعه ويعود أدراجه إلى عمله فى الخارج . ومع ذلك كان رشدى بك معجباً بخبرة الوزير ونشاطه وإخلاصه ، خاصة وأنه لم يتبق له سوى عام كى يحال إلى المعاش ، فلم يكن له أى مطمع . ولذلك حاول التخفيف من غلوائه ضماناً لاستمراره أطول مدة ممكنة ، خاصة وأن الوكيل الدائم كان يدفعه إلى اتخاذ المزيد من الإجراءات الصارمةالتى تزيد الموقف اشتعالاً مع هبات الرياح التى لا يعرف أحد مصدرها .

فى الوقت نفسه عملت زوجته الدكتورة نهى مستشارة لجهاز تنظيم الأسرة فى مصر . واندهشت للمرتب الضخم الذى خصص لها ، لكنها فوجئت بأن كبار المسئولين فى الجهاز يتقاضون مثله بالإضافة إلى الحوافز والمكافآت والبدلات ، كما فوجئت بأن الهيئات الأجنبية التى تقوم بتمويل الجهاز وإمداده بوسائل الدعاية والتوعية والإعلام ووسائل تحديد النسل ، تصرف معظم الاعتمادات على المسئولين أنفسهم ، وفى بنود شكلية مظهرية مثل الأجندات ونتائج الحائط ، والندوات والمؤتمرات التى يصرف عنها مكافآت سخية ، والإعلانات الساذجة التى لا تجد صدى غير السخرية عند جماهير الشعب المتسببة فى المشكلة الخطيرة . اتصلت ببعض هؤلاء الخبراء والمسئولين الأجانب حتى يعاد النظر فى بنود المصروفات كى يتم تركيزها فى الجوانب العملية والإيجابية المثمرة ، لكن سلوكهم معها كان متحفظاً للغاية ، وكأنهم يعرفون كل التفاصيل بل ويباركون الأسلوب الذى تسير به الأمور ، لدرجة أنها ظنت أن هدفهم الحقيقى هو تفاقم الانفجار السكانى حتى يأتى على الأخضر واليابس . ومع ذلك واصلت التصدى للتيار برغم أنه كان أقوى منها ، وأن رأيها كان استشارياً فحسب !

أما ابنتها هالة فقد سحرها الدفء العاطفى الذى غمرتها أمواجه فى القاهرة فقررت إكمال دراستها القانونية فى حقوق القاهرة ، وبذلك لا تفترق عن أبويها اللذين عاشت معهما حياتها كلها . لكنها قضت عاماً حافلاً بمشكلات لم تخطر لها على بال ، منها سلوكها المتفتح المنطلق وملابسها الجريئة البسيطة

التى أثارت أقاويل وشائعات كثيرة خاصة بين المتزمتين والمتزمتات من زملائها . لاحظت في أول الأمر نظرات غامضة ، محيرة ، ثم مريبة فى عيونهم لكنها لم تعبأ بها إلى أن نقلت زميلة حميمة لها ما يقال من شائعات أصابتها بصدمة جعلتها تحن لنيويورك .

كانت تظن أن مشكلتها الوحيدة تتمثل فى إتقانها للغة العربية قراءة وكتابة حتى تواصل بها دراستها . وحاولت الإستنجاد بأبيها حتى يتوسط لها لأداء امتحاناتها بالإنجليزية ، لكنه أكد لها أنه رباها على مواجهة التحديات ، وهذا تحد يجب أن تقهره ، خاصة أن اللائحة الجامعية لا تشمل بنداً يسمح بالامتحان بلغة أجنبية ، خاصة وأنها مصرية لحماً ودماً .

لم يخفف من إحساس هالة بالمأزق الذى تورطت فيه سوى زميل لها بالكلية كان ينتمى لأسرة ثرية ، وأبدى اهتماماً واضحاً بها عندما عرض مساعدتها فى إتقان اللغة العربية فى مقابل مساعدته فى الاطلاع على المراجع الأجنبية . كان مهذباً ورقيقاً بحيث رحبت به أسرة الوزير فى بيتها ، بل وتوطدت أواصر الصداقة بين الأسرتين برغم حساسية الوزير تجاه الأب الذى كان مليونيراً ، لكنه ارتاح له عندما وجد أنه ليس من نوع مليونيرات الانفتاح ذوى الجيوب المنتفخة والعقول الفارغة والسلوكيات الفجة .

وفجأة خرجت صحيفة معارضة تدعى وجود صفقات مشبوهة بين إدارات الوزارة وشركات المليونير ، وأن العمولات التى سيتقاضاها الوزير تعد بالملايين ، خاصة فى مجالات توريد الآلات الزراعية الحديثة التى ستستخدم فى المزارع ووحدات الإنتاج الجديدة التى ابتدعها الوزير . ولم يملك الوزير سوى أن يرفع قضية على الصحيفة ، وقد أدرك أن حبال القضاء طويلة ولن تخرس الألسنة على الفور . فما كان منه سوى أن قطع علاقته بالمليونير ، ونأى بابنته عن ابنه . وهكذا سدت كل الأبواب فى وجه هالة التى اعتذرت عن عدم دخول الامتحان لأنها قررت العودة إلى نيويورك لإكمال دراستها فى جامعتها !

لم يقتصر صدام الوزير فى وزارته مع المسئولين فحسب من خلال الشائعات والشكاوى والخطابات الكيدية التى تتهمه فى إخلاصه وأمانته ، بل امتد ليشمل

الخبراء الاجانب الذين وردوا إلى مصر ووجد فيهم نمطاً جديداً ومختلفاً تماماً عن النمط الذى خبره من قبل فى الخارج . فقد كان يظن أن التعامل مع هيئة المعونة الأجنبية التى قدمت للوزارة قرضاً كبيراً للتنمية الغذائية ، سيكون أكثر سهولة من التعامل مع المسئولين المصريين ، نظراً لتعامله معهم عشرين عاماً . لكنه ذهل عند لقائه بمندوب الهيئة الأجنبية الذى اجتمع به على انفراد وحدثه عن نصيبه فى العمولات كما لو كان يتحدث عن حالة الطقس ، وذلك فى مقابل إحلال خبراء الهيئة محل الخبراء المصريين الذين لا يثق فى علمهم وخبرتهم . وكان مندوب الهيئة الأجنبية يظن أن الدكتور شريف سيكون رجلهم فى الوزارة الجديدة ، لكنه فوجئ به وهو يدافع عن الخبرة المصرية التى تعرف عن مصر ما لا يعرفه الآخرون . أما فيما يتصل بالعمولة فقد صارحه بأن اسمها فى بلد المندوب رشوة ، وعقابها يمكن أن يؤدى إلى خلع أى مسئول من كرسيه وإحالته إلى المحكمة !

خرج مندوب هيئة المعونة الأجنبية وهو يحاول كبت مراجل الغضب داخله بالتحفظ فى تصريحاته للصحفيين ! كان شغله الشاغل هو : ماذا سيقول لرؤسائه فى الهيئة وهو الذى صور لهم أن مهمته فى مصر ستكون نزهة سياحية لا أكثر ولا أقل ؟ ! وظل حائراً لا يجد ما سيقوله حتى قبل رحيله بساعات عندما اتصل به مفيد بك وأمده بالنصيحة التى جعلته يرحل سعيداً ! فقد أعلن فى المطار قبل سفره فشل المفاوضات حول حجم القرض ونوع المعونة الأجنبية لاختلاف وجهات النظر !

فى الوقت نفسه تركت الدكتورة نهى العمل كمستشارة لجهاز تنظيم الأسرة ، وحاولت الالتحاق بالجامعة للاستفادة بخبرتها فى مجال اقتصاديات الأسرة لكنها فوجئت بأن اللائحة تنص على تعيينها بدرجة مدرس فى حين أنها كانت تعمل بدرجة أستاذ فى جامعة نيويورك . وافقت فى أول الأمر لكنها رفضت عندما وجدت نفسها وقد تساوت مع من هم قريبين من سن ابنتها . وآثرت الالتفات لبيتها ، فقسمت وقتها بين زوجها فى القاهرة وابنتها فى نيويورك كلما أمكن ذلك .

كانت قادرة على الوقوف إلى جانبه فى مهامه الشاقة التى أصبحت تستغرق الليل بطوله فى بعض الأحيان مما أجهده كثيراً ، ولم يعد قلبه يحتمل أكثر من هذا . مما جعل الطبيب ينصحه بالتزام الراحة والاستجمام بقدر الإمكان حتى يواصل حمل هذه الأعباء الجسام .

لكن الريح بدأت فى التحول إلى إعصار إذ انهالت الاستجوابات على الوزير بخصوص القرض والمعونة ، وشرع أعضاء المعارضة وصحفهم يلمحون بأن هناك مواقف مريبة غامضة أعاقت إتمام الصفقة . عندئذ قرر رئيس مجلس الشعب تحديد جلسة استجواب للوزير عندما ألقى مندوب هيئة المعونة الأجنبية بالقنبلة الموقوتة فى بلده عندما قال فى مؤتمر صحفى عقده خصيصاً لهذ الموضوع :

– لقد رفض الوزير المصرى إتمام القرض والمعونة لأننى رفضت منحه العمولة الكبيرة التى طلبها !

بلغ ضجيج الأوركسترا قمته بقيادة مايسترو خفى بعد أن تصور الدكتور شريف أنه مايسترو التناغم الوحيد . فلم يحتمل الإعصار الذى هب من كل حدب وصوب : من الصحافة والإعلام والمعارضة . بل إن رئيس الوزراء الدكتور إسماعيل فوزى استدعاه حتى يوقف الإعصارالذى يهدد الوزارة كلها ، ودهش لثباته وقوته ، لكن صحته لم تكن على ما يرام . كان الإجهاد قد أخذ منه كل مأخذ ، وأنفاسه غير منتظمة ، لكنه وعد رئيس الوزراء بوضع الأمور فى نصابها ، فهو يملك ما يدافع به عن اسمه وشرفه . وكان قد اشتم من كلامه أن تعديلاً وزارياً محدوداً على وشك أن يجرى !

لكنه عندما عاد إلى بيته كان قد سقط بين ذراعى زوجته التى استقبلته فى لهفة . كان ضيق التنفس قد تحول إلى اختناق ، وآلام الكتف والصدر إلى خناجر محماة . وسرعان ما نقل إلى غرفة الإنعاش التى بقى فيها أسبوعاً عاشته زوجته كالجحيم الذى احتملته دون أن تبلغ هالة فى نيويورك ، فيكفيها غربتها وعزلتها .

تحسنت حالته فنقل إلى غرفته بالمستشفى ، فإذ بمواكب النفاق تتوافد عليه

باقات الورد وعلب الحلوى ، لكنه كان أسبق من إدارة المستشفى فى منع الزيارات عن غرفته . فهناك كثير من الوجوه التى لا يريد أن يراها ، وفى مقدمتها وجه مفيد بك .

كذلك منعت عنه الصحف والمجلات التى ادعى بعضها أن مرض الوزير مرض سياسى ، وأنه يحاول تأجيل إقالته أطول مدة ممكنة لعله يجد ثغرة ينفذ منها ، بل إن التعديل الوزارى المحدود فى انتظار خروجه من المستشفى حتى لا يبدو الأمر كضربة موجهة إلى شهيد على فراش المرض .

وأخيراً أبل من مرضه وإن كان القلق لا يزال يقتل زوجته . طلبت منه تقديم استقالته والعودة للعيش فى أمان ، لكنه بإصراره المعهود قال :

– ليس قبل أن أبرئ ذمتى من كل ما مسها من تلويث !

بل طلب تحديد جلسة فى مجلس الشعب للإجابة عن كل الاستجوابات والتساؤلات المثارة . واكتظت القاعة عن آخرها على غير العادة . حتى الأعضاء الذين اعتادوا التزويغ جاءوا عن بكرة أبيهم فى حين وقف الصحفيون والمراسلون والمصورون فى الممرات بين صفوف المقاعد . عندما وقف الدكتور شريف فريد عشش الصمت على رءوس الجميع ، فقد سمح له رئيس المجلس بكلمة طلبها قبل الرد على الاستجوابات . قال بصوت رنان هادئ أثار دهشة المستمعين :

– سيدى الرئيس .. السادة أعضاء مجلس الشعب الموقر .. كنت أتمنى أن أحضر من قبل لأشرف بالمثول بين أيديكم .. لكن المرض أجل حصولى على هذا الشرف .. والآن اسمحوا لى بهذه الكلمة القصيرة ولكم بعد ذلك أن تستجوبونى ما شاء لكم الاستجواب .. فأنتم تعلمون أننى كلفت بوزارة التنمية الغذائية نظرا لخبرتى الدولية فى هذا المجال .. ولى مشروعات تم تنفيذها فى دول العالم الثالث .. فى أمريكا اللاتينية .. وأفريقيا .. وآسيا .. وكنت أتساءل : هل يعقل أن تستفيد كل هذه الدول باستثناء مصر وطنى الذى ظل الشوق يحرقنى إليه عشرين عاماً ؟ ! وأخيراً جاءتنى الفرصة ليس كخبير دولى والسكرتير العام المساعد للأمم المتحدة لشئون التنمية الغذائية ، ولكن كوزير .. كنت سعيداً ليس لأننى فى حاجة إلى المنصب ولكن لأن المنصب فى حاجة إلىّ .. ليس

هذا من باب الغرور ولكن من باب وضع الأمور فى نصابها .. فقد تعلمت أن الإنسان هو الذى يصنع الكرسى وليس الكرسى هو الذى يصنع الإنسان .. ومع ذلك لابد أن أعترف أمامكم بفشلى الكامل فى شغل هذا الكرسى .. ليس لعجزى وجهلى ولكن لأننى وجدت أن قواعد اللعبة تختلف تماماً عما اعتدته فى الخارج .. قواعد لم أتبعها ولا أحب ممارستها وإن كانت قد علمتنى الحرص منذ البداية وهذا ما سأثبته لحضراتكم الآن .. كان دهاقنة البيروقراطية يظنوننى مجرد « خواجة » غشيم سرعان ما يجد نفسه أهبل فى زفة .. وفى مقدمتهم السيد الوكيل الدائم للوزارة الجالس بين حضراتكم الآن يستمع الى مستمتعاً بانتظار سقوط الثمرة الذى أصبح وشيكاً !

تضاربت عيون الحاضرين يمنة ويسرة ، فوق وتحت بحثاً عن الوكيل الدائم للوزارة الذى أصيب بذهول تجسد فى جفونه المرتعشة تحت نظارته السميكة . لكن الوزير واصل زحفه :

– كنت أعلم أن الشائعات رشحته لتولى الوزارة .. لكنها عندما طارت منه إلىّ كما يحلو له أن يقول فى جلساته الخاصة .. عملت على أن يعود منصب الوكيل الدائم للوزارة حتى أشعره أنه أكثر استقراراً من الوزير نفسه ، وأنه الأمين على استمرار استراتيجية الوزارة حتى لو تغير الوزير .. ومع ذلك واصل تحوير أنباء الوزارة وتسريب أسرارها إلى الصحف بهدف تشويه صورتى .. وكلنا يعلم أن الصحافة .. سواء القومية أو المعارضة .. تموت شوقاً للإثارة أو السبق أو ما يسمى بالخبطة الصحفية .. وغالباً ما تكون مرتبطة بالشبهات والتهم وسقوط من كان يظنهم الناس مثلا علياً لهم .. وبلا تحريات أو حيثيات قضائية تصدر الأحكام الصحفية التى قد تحاكى الإعدام .. وتتحول المانشيتات إلى طلقات رصاص فى صدر الضحية .. وتتدفق أنهار الصحف بكل ما يثير القراء حول أسرار الضحية .. وإذا أحيل الموضوع إلى القضاء وصدر الحكم بتبرئة ساحة الضحية .. فإن خبر البراءة لا يتعدى ثلاثة أو أربعة أسطر فى صفحة داخلية من الجريدة .. وبذلك تظل الصفحات السوداء هى المسيطرة على أذهان القراء والجمهور حتى بعد حكم البراءة .. ومن هنا كان اختيارى

لمنبر مجلسكم الموقر كى أثبت براءتى على الملأ .. فأقدار البشر ليست لعبة مثيرة لطرد الملل أو كرة بين أقدام الانتهازيين والمتسلقين وحملة الخناجر المسمومة فى الظلام ..

ثم فتح الدكتور شريف حقيبته الصغيرة الموضوعة على المنبر وأخرج منها جهاز تسجيل :

– هذا هو دليل براءتى .. تسجيل كامل للحوار الذى دار بينى وبين مندوب هيئة المعونة الأجنبية الذى اتهمنى برفض القرض والمعونة لأنه لم يمنحنى العمولة الضخمة التى طلبتها منه ، فى حين أننى كنت على وشك أن أطرده من مكتبى عندما عرض علىّ العمولة وإحلال الخبراء الأجانب محل المصريين عند تنفيذ المشروع . وإلى حضراتكم التسجيل بالإنجليزية .

ثم أدار الجهاز بكل الحوار الذى نقله الميكروفون ليجلجل فى أرجاء القاعة وقد استحال الجميع إلى تماثيل من الصمت والإنصات حتى نهاية التسجيل .

أخرج الدكتور شريف الشريط من الجهاز ليضعه على المنبر قائلا :

– وأرجو ضم الشريط إلى وثائق مجلسكم الموقر !

ثم فتح الحقيبة الصغيرة مرة أخرى وكل العيون تتابعه كما لو كان ساحراً يخرج من جعبته كل ما هو غريب وعجيب . أخرج مظروفاً أبيض وهو يوجه حديثه إلى رئيس الوزراء الجالس فى المقدمة :

– كما أنتهز فرصة وجود الأستاذ الدكتور رئيس الوزراء لأشكر سيادته على تشريفى بإسناد وزارة التنمية الغذائية إلى شخصى الضعيف . وإن كنت قد اعتبرته من باب التكليف لا التشريف .. لكننى أعترف أمام سيادته بفشلى فى القيام بالمهمة المطلوبة كما تصورتها منذ البداية .. وأنا لم أعتد الفشل فى حياتى وبالتالى لا أطيق الاستمرار فيه .. ولذلك فإن الأسف يعتصر قلبى وأنا أتقدم إلى سيادته باستقالتى راجياً أن أكون عند حسن ظنه ، كما أشكر لحضراتكم صبركم الجميل على الاستماع إلىّ بصدر رحب ، وإتاحة هذه الفرصة لى .. وأنا الآن تحت أمركم فى أى استجواب .

دوت القاعة بالتصفيق الذى استمر دقائق سأل الرئيس فى نهايتها الأعضاء :

– هل لا يزال بعض الأعضاء يطلبون الكلمة ؟ !

لم يرفع أحد يده فدق المنصة بالمطرقة :

– ترفع الجلسة !

وسرعان ما التف بعض الأعضاء حول الدكتور شريف فى حوار حار ، وومضات الاحترام تتألق فى عيونهم .

* * *

انطلقت الطائرة العملاقة فى سماء القاهرة فبدا النيل خطا فضياً يفصل بين مبانيها الشاهقة التى تحاصر بقايا المساحات الخضراء التى سرعان ما تراجعت أمام رمال الصحارى المحيطة بالأهرامات وأبى الهول . انحدرت دمعة على خد الدكتور شريف خلف نافذة الطائرة :

– هل كتب علينا أن نقضى عمرنا بعيداً عن مصر ؟ !

ضغطت الدكتورة نهى على يد زوجها بحنو حار :

– قد لا نعيش فى مصر فى بعض الأحيان .. لكن مصر تعيش فينا دائماً ! إننا نحملها داخلنا أينما ذهبنا !

* * *

الحديقة المحترقة

لم يكن أحد يتصور أن ينقسم آل المصرى إلى حزبين بعد رحيل رب الأسرة المصرى الكبير . كانت عائلة من العائلات العريقة التى تمتد جذورها إلى أعماق غائرة فى تربة مصر . لكن المصرى الكبير كان يميل بعض الشيء إلى ابنه البكر ثابت الذى يرى فيه استمرارا لتقاليد أسرته العريقة بعد أن فشل فى تنشئة ابنه الأصغر بالأسلوب الذى يمكن أن يحافظ به على هذه التقاليد .

كان ثابت رجل أعمال ناجح سواء فى مجال الزراعة أو التجارة ، ويملك مرونة فائقة لم تكن لتتأتى لأبيه الذى ظل يتساءل : ماذا جرى للدنيا ؟ تساؤل ألح عليه منذ قيام ثورة يوليو ولم يستطع أن يجد إجابة شافية عليه . أما ثابت فلم يكن يعبأ بالتساؤلات بقدر ما كان متربصا بالتحولات حتى لا تجرفه بعيدا ويظل ينعى حظه كأبيه ، ولذلك استطاع أن ينمى ثروته حتى فى أيام التطبيقات الاشتراكية وحمى التأميمات . كانت قوانين تحديد الملكية والإصلاح الزراعى قد اقتطعت مساحات كبيرة من الأراضى التى تملكها الأسرة ، لكن ثابتا استوعب الصدمة التى أصابت أبيه بأمراض السكر والضغط وتصلب الشرايين بل وأقعدته عن الحركة فى أخريات أيامه .

وعلى الرغم من أن ثابتا كان يؤمن بأن الحياة فى حقيقتها هى فن ركوب الموجة تلو الموجة ، فإنه كان دائم الخوف من أن تجرفه موجة عاتية ذات يوم لتلقى به إلى حيث لا يعلم ، يوم تستولى فيه الدولة على ما ادخره من عقارات وأموال . وظل متوجسا الشر حتى تحقق حلمه الأثير بالعودة إلى نظام تعدد الأحزاب ، وسرعان ما انضم بكل قوته وحماسه إلى حزب التراث المجيد الذى يتمسك بكل قيم الماضى وتراثه على أنه الجنة المفقودة وسط أمواج التقلبات والطفرات والشطحات الثورية ، خاصة وأنه سئم من القفز من موجة إلى أخرى ، وآن الأوان ليرسو على بر الأمان .

كان المصرى الكبير يأسى للتنا قض الحاد بين ولديه . وكم تساءل كيف لابنين تربيا فى بيت واحد على قيم أب اعتاد أن يسقيها لهما فى كل شاردة وواردة ومع ذلك يقف كل منهما على طرفى نقيض ؟! وبرغم ميل الأب إلى ثابت فإنه التزم الحياد إلى حد كبير حتى لا يتحول التناقض إلى صراع قد يحدث صدعا فى البناء الذى أفنى عمره فى تدعيمه برغم كل الضربات التى كان البعض يظن أنها قاضية . فقد فشل الابن الأصغر طارق فى إكمال دراسته مما أشعل نار الغيرة فى قلبه من ثابت الذى كان يحسب لكل خطوة حسابها قبل أن يخطوها . وفى معظم الأحايين كان النجاح والتوفيق فى مقدمة حلفائه .

ونظرا لفارق السن الكبير بين الأخوين فقد ترعرع طارق مع أمجاد عبد الناصر وانتصاراته التاريخية فسحرته شخصيته الأسطورية ، وانضم إلى التنظيمات الشبابية بل وآمن بأن الاشتراكية هى الحل المثالى لكل مشاكل البلد . لكنه لم يتخل عن نصيبه فى التركة بعد رحيل أبيه الذى كان يملك أجود حدائق للفاكهة فى البلد . كان أصدقاؤه من الاشتراكيين المتطرفين يسخرون منه فى بعض الأحيان لإصراره على الملكية الفردية ، لكن عمله بالصحافة علمه كيف يبرر كل شىء : كان يؤكد لهم أن الاشتراكية هى اشتراكية الغنى لا الفقر ، ولذلك حرص بل وسعد باقتسام الحدائق مع أخيه ، بل وسعى إلى رعاية نصيبه بحماس يفوق حماس أخيه . كانت شعبيته كاسحة بين الفلاحين والأجراء الذين يحلو له أن يصادقهم ويتناول طعامه معهم ، فى حين كان أخوه يأنف من هذا السلوك الفج ، ويستعيض عنه بالهبات والحوافز . فلا يزال لكل إنسان قدره ، لكن الأقدار لا تتساوى .

وبالطبع عندما أخذ بنظام تعدد الأحزاب أسرع طارق للانضمام إلى حزب المستقبل السعيد الذى وقف بالمرصاد لحزب التراث المجيد ، وبذلك انقسمت الأسرة بعد رحيل المصرى الكبير إلى حزبين ، برغم أن العمدة المسن الحكيم كان يتندر كل ليلة بهذا الصراع على أساس أن الحكومة فى النهاية تفعل ما تقرره وما تريده ، فبيدها زمام الأمور أولا وأخيرا ، وليتناطح المتناطحون ما شاء لهم التناطح .

لكن حكمة العمدة لم تنتقل إلى الفلاحين والأهالى الذين انقسموا بدورهم إلى قبيلتين دون أن يعرفوا شيئا عن مبادئ وتوجهات هذا الحزب أو ذاك . كانت الأمية هى القاسم المشترك الأساسى بينهم .لم يعرفوا سوى أن هؤلاء رجال ثابت وأولئك

رجال طارق ، فى الوقت الذى ظن فيه الأخوان أن كلا منهما جاء رسولا للعناية الإلهية لإنقاذ البشرية المعذبة من الطوفان الذى يتربص بها . كانا يتحركان كالمنومين مغناطيسيا حتى فقدا القدرة على توقع نتائج أفعالهما ، ووراءهما القطيع الذى يندفع أحيانا بسرعة أكبر من سرعتهما ، فيدخلون جميعا فى دائرة مفرغة من اللهاث خلف شعارات لا يلمسها احد من الأهالى الذين وصفهم عبيط القرية ذات مغرب بأنهم مثل الهبل فى الزفة .

حاول أولاد الحلال من أبناء الأسرة والأهالى تضييق شقة الخلاف بينهما ، لكنهم فشلوا لأن الوسائل التقليدية لم تعد تجدى فى رأب الصدع الذى نتج عن غسل المخ الذى جرى لكل منهما فى حزبه دون أن يدرك أبعاده بوعى خاص به . فعلى الرغم من أن هدف النظام الحزبى هو تعدد الآراء داخل الأمة الواحدة ، إلا أن أعضاء كل حزب لا يمارسون الديمقراطية داخل حزبهم ، ولذلك فإن الاتجاه داخل الحزب الواحد أحادى الجانب . قد يتمسح رئيس الحزب بالدبلوماسية الناعمة التى تتسربل بأردية الديمقراطية ، وقد يكون أكثر صراحة فى تعميم توجهاته ، لكن سواء هذا أو ذاك فإنه يفرض رأيه فى النهاية بطريقة أو بأخرى !

ومع انتقال الصراع إلى الفلاحين العاملين فى الحديقة الكبيرة ، خاصة وأن هذه الحديقة أرض متصلة لا يفصل بين شطريها سوى جدار منخفض من الطوب اللبن أقيم بعد رحيل الأب ، فقد بدأت المناوشات وحوادث الثأر والانتقام ، ولم يعد لقسم الشرطة عمل فى المنطقة سوى التحقيق والتحرى عن المتاعب المتجددة بين الفلاحين المتورطين فى معارك وهمية ، وإن لم تكن نتائجها وهمية على الإطلاق .

وبدلا من أن يتعقل الأخوان ، تصور كل منهما فى نفسه زعيما سياسيا ، لم يتبق أمامه سوى خطوة واحدة كى يمسك بزمام الأمور فى البلد . اندفعا بحماس فاق حماس الفلاحين ، إذ أن قطيع كل حزب كان يدفع كل منهما بأقصى سرعة ، وعليه أن يواكب سرعته على الأقل وإلا داسته الأقدام والحوافر وسط سحب الغبار المتصاعدة فى العيون والأنوف والحلوق . فقد كانت الانتخابات على الأبواب .

فى وطيس الانتخابات الحامى حاول بعض الرفاق فى حزب المستقبل السعيد إغراء طارق كى يبيع أرضه لهم حتى يتفرغ هو للزعامة السياسية ، وحتى يجنبوا

الاحتكاك بأخيه والصراع معه على الأرض إذ يكفيه الاحتكاك السياسى بكل همومه وأثقاله . لكن الممارسة السياسية نفسها كانت قد علمته أن ليس كل ما يسمعه من قبيل النصيحة الخالصة . وساعدته على ذلك زوجته ابنة خولى الحديقة الذى رحل بعد الأب بشهور ، والتى تعرف قيمة الملكية التى لم تخبرها طوال حياتها السابقة مع أبيها الكادح الذى رحل دون أن يعرف أو يتصور أن ابنته تزوجت من ابن المصرى الكبير . ويبدو أن زواجا من هذا النوع كان مستحيلا فى وجود الأبوين ، خاصة المصرى الكبير !

ثم جاءت أيام الانتخابات العاصفة وكأن الطقس كان يشارك البشر هياجهم . كانت الرياح المحملة بالأتربة الداكنة والرمال الناعمة تلفح الوجوه وتعمى الأبصار ، ومع ذلك لم توقف من حدة التكالب على الأصوات . بل يبدو أنها انتقلت إلى داخل الفلاحين أنفسهم إذ قرر فلاحو الأخ الأصغر إحراق بساتين الأخ الأكبر حتى ينشغلوا بالحريق عن جمع الأصوات ، لكن فلاحى الأخ الأكبر لم ينشغلوا سواء بالحريق أو بجمع الأصوات ، وإنما انشغلوا بمهمة أخرى تماما : سارعوا إلى إحراق بساتين الأخ الأصغر ، وإذ بالنيران توحد بين شطرى الحديقة الكبيرة ، وترعى فى أشجار التفاح والخوخ والبرقوق وتكعيبات العنب ، وتتصاعد الألسنة الحمراء والجبال الدخانية محملة برائحة الثمار المحترقة التى كانت تتساقط صرعى على الأرض السوداء وهى تئز مستغيثة من هذا الجحيم الذى فتح بابه على مصراعيه !

طارت الأنباء إلى الأخوين المنهمكين فى جمع الأصوات عند قسم الشرطة ، وإذ بالحمى الانتخابية تنطفئ فجأة داخلهما . ودون أدنى تفكير أو تردد أسرعا إلى الحديقة المحترقة مع رجال الإطفاء الذين جاءوا من أنحاء متعددة بسياراتهم الحمراء ، وخوذاتهم النحاسية ، وخراطيمهم التى تشفط المياه من كل الترع المحيطة والمصارف المجاورة ، وإن كانت الثقوب قد اعتورت بعضها فانطلقت منها بعض النافورات بعيدا عن أرض الحريق . وانضم الفلاحون والأهالى إليهم بنفس الحماس الذى دفعهم إلى إشعال النار . لكن النيران ظلت متأججة طوال ليلة غاب فيها القمر ولم يخمد أوارها إلا مع فجر اليوم التالى عندما انداحت العاصفة التى حملت الشرر وطارت بالثمار المحترقة لتحيل الحديقة إلى بساط من نار .

وعندما قام رجال الشرطة والنيابة بالتحقيق لمعرفة أسباب الحريق ، تضافر الأخوان لأول مرة فى تأكيدهما على أنها كانت قضاء وقدرا نتيجة للعاصفة الهوجاء التى نشرت النيران فى الحديقة فى لمح البصر . كذلك لم يتهم أحد من الفلاحين زميله من الطرف الآخر بإشعال النيران .

وبرغم الكارثة كان الجميع سعداء بأن النيران لم تمس البيت الكبير الذى بناه المصرى الكبير على حافة الحديقة . لم يجد الأخوان مكانا غيره يستريحان فيه بعد عودتهما منهكين من مكافحة الحريق وأسئلة الشرطة والنيابة . جلسا فى الشرفة الفسيحة التى تطل على الحدائق وإذا بالفلاحين المنهكين الذين لطخ الغبار والدخان وجوههم وسواعدهم وجلابيبهم ، يهرعون إلى إزالة الأشجار والثمار المحترقة بهمة لا تعرف الكلل !

أسـطورة مصـرية

كان ياماكان فى سالف العصر والأوان ملك مصرى اسمه رمسيس الحادى عشر حكم ربع قرن من الزمان قبل الميلاد . لكن فى السنة العشـرين من حكمه وكانت توافق عام ١٠٩٥ق م ، كانت الإمبراطورية المصرية قد فقـدت هيبتها التقليدية من شعوب المنطقة المحيطة بها بعد أن احتلت القبائل الآسيوية حدودها الغربية على ضفاف البحيرة الخضراء وأصبحت تهدد تانيس فى قلب أراضيها بمجـرد عبورها إلى الضفاف الشرقية للبحيرة .

وبرغم شهرة المصريين فى أفعالهم السحرية المذهلة ، فإن آمون لم يسـعفهم هـذه المرة عندما وضعت القبائل الآسيوية سبعة تماسيح فتاكة ، يستطيع الواحد منها أن يبتلع سفينة بأكملها ، وبذلك أمن زعماء القبائل أنفسهم من أى عدوان عليهم وضمنوا استمرار الاستعداد والتدريب للغزو الكبير .

كانت صدمة المصريين بشعة . فقد اعتادوا تلقيب هـذه القبائل بشذاذ الآفاق . فهم فى نظرهم لم يكونوا سوى شراذم لا أصل لها ولا فصل ، لكن أن تتصور هـذه الشراذم فى نفسها القدرة على المساس بهيبة الإمبراطورية المصرية ، فهـذا لـم يخطر ببال مصرى حتى فى أشد الكوابيس وطأة . لكـن الواقع كان أبشع من الكابوس عندما أطلت الوجوه الصفراء الكئيبة على مياه البحيرة الخضراء وهى ترنو بعيونها الداكنة صوب الضفة الأخرى ، وتحلم باحتلال قريب لها .

وسط الصلوات والابتهالات والرقصات وتقديم القرابين والبخور وقف رمسيس خاشعا أمام قدس الأقداس وهو يصلى لآمون كى يشد أزره فى تطهـير أرض الوطن من دنس المغتصب . تمنى رمسيس سحرا أقوى من سحر التماسيح الفتاكـة السبعة ، لكن هكذا تكلم آمون على لسان كبير الكهنة هيروتور :

ــ آمون لا يحب أن يساعد مـن يعجـزون عـن مساعدة أنفسـهم .. ولـن يـزول سحر التماسيح الفتاكة إلا بإعادة بنـاء مركـب آمـون المقدسـة : أوزيـر ــ هـات ــ آمـون ، ومعها قطع الأسطول المصرى التى تحتاج إلى تجديـد وتغيير . وبمجـرد تقـدم

سفينة آمون فى البحيرة الخضراء وخلفها السفن الأخرى ، سوف تتساقط التماسيح الجبارة من تلقاء أنفسها إلى قاع البحيرة بلا عودة ، على أن يتكفل الجنود المنقولون بسفن الأسطول ، بقبائل الآسيويين لحظة عبورهم للبحيرة الخضراء .

كم استمتع رمسيس برائحة البخور المقدس وسحابات دخانه الأبيض النقى تتهادى حول القوائم الذهبية لقدس الأقداس ! لكنه هذه المرة شعر باختناق ! انتابه شعور غامض بأن آمون قد تخلى عنه ، لكنه قاومه بقدر الإمكان وهو يلتفت إلى أونامون مستشاره ، وكما كنت وزير بلاطه قائلا :

ـــ لازلت مؤمنا بسطوة السحر على المعركة وقدرته على طرد المغتصبين .. فلا يعقل أن ينهزم السحر المصرى أمام سحر هذه الشراذم .. وقد أدركت الآن أن السحر قوة كامنة فينا نحن أيضا . . فلم يحتفظ بها آمون كلها لنفسه .. وعلينا الآن أن نكتشفها ونخرجها إلى حيز الوجود كى نبهر بها الأعداء قبل الأصدقاء . . ومن الآن يبدأ فورا بناء مركب آمون المقدس ويتم إعداد كل سفن الأسطول بعيدا عن عيون الأعداء .. أما عن جنودنا المرابطين على خط القتال عند الضفة الغربية للبحيرة الخضراء فعليهم أن يبدوا فى منتهى التراخى والكسل .

ذهل أونامون مستشار الملك فلم يملك سوى مقاطعته :

ـ كيف يامولاى ؟!

ـ على سبيل التعمية يا أونامون ! ! فسيتم استبدالهم دوريا بجنود تم تدريبهم بمنتهى الحزم والصرامة بعيدا عن عيون الأعداء .. وهكذا نبدو فى نظرهم لقمة سائغة فى الوقت الذى سنأخذ فيه أنفسنا بمنتهى الشدة والتقشف والجهاد المستمر . . إلى أن يسمح آمون بانقشاع الغمة !

تساءل أونامون مرة أخرى :

ـ ومن أين سنحصل يامولاى على الأخشاب اللازمة لصناعة المركب المقدس وإعداد سفن الأسطول ! لم تعد طلبات الإمبراطورية المصرية ملباة من الدول الأخرى كما كانت من قبل ! لم يعد أحد يرهبنا يامولاى !

طرد الملك أمواج الإحباط التى تغرقه :

ـ سأرسلك إلى أمير بيبلوس .. وستقدم له تمثالا لآمون كهدية مقدسة تجعل منك سفيرا فوق العادة .. وأعتقد أن هذا كفيل بتلبية كل طلباتنا من الأخشاب !!

أشار رمسيس الحادى عشر إلى المحفة الذهبية التى تقدم ليجلس عليها إيذانا بانتهاء الطقوس الدينية والمراسم الملكية ، فأسرع رجال الحاشية لحملها والخروج بها من معبد آمون وخلفها الموكب الملكى المهيب حيث اصطفت الجماهير على الجانبين فى خشوع لتحيى المليك المفدى . لكن انحناء الظهور كان هذه المرة تحت وطأة الألم والهزيمة والذل أكثر منه خشوعا للفرعون . اجتاح الناس شعور ممض بأن أيام النصر الخوالى قد راحت بعصرها الذهبى بلا رجعة .

وفى بلاط رمسيس الحادى عشر لم تكن الأحوال على ما يرام أيضا . ركن أفراد الحاشية المستفيدين بمناصبهم وامتيازاتهم إلى الراحة والدعة ، فإذا كان الملك لا يدرى ماذا يفعل على وجه التحديد ، فلماذا يشغلون أنفسهم بمهام ليست فى نطاق مسئولياتهم ؟! كما أن عبور شراذم الآسيويين للبحيرة ليس بالأمر السهل إذ يمكن إغراقهم فيها إذا حاولوا ، وربما نجح ساحر البلاط فى تحويل سحر التماسيح ضدهم فيقعون فى الهاوية التى صنعوها لغيرهم !! فلماذا كل هذا العناء ؟! وكل هذا القلق ؟! وكل هذا الضيق ؟! والأمور ليست بهذا السوء ؟! ولذلك صمت كبيرهم كما كنت وزير البلاط ولم يعلق بكلمة واحدة على الحوار الذى دار بين الملك وأونامون فى معبد آمون ! فقد رأى فى كلمات الملك مجرد إنقاذ مؤقت لماء الوجه !

لكنه اكتشف بمرور الوقت مع رجال الحاشية أن الأمر هذه المرة جاد وخطير ، وأن الحرب أصبحت أمرا محتملا بمجرد رجوع أونامون بالأخشاب المطلوبة . فاجتمعوا كى يفكروا فى وسيلة للضغط على الملك كى يتراجع فى قراره الخطير الذى ربما تسبب فى إغراق الأسطول المصرى كله فى البحيرة ، وبذلك تصبح البلاد ساحة مباحة للأعداء كى يصولوا فيها ويجولوا من مشارقها إلى مغاربها دون رادع .

وبعد تقليب الأمر على كل وجوهه المحتملة طلبوا الاجتماع الذى سمح به الملك الذى قاوم كل الضغوط التى مارسوها عليه . أصبحت الحرب على حد كلماته التى أنهى بها الاجتماع :

ـ إنها مسألة إما أن نكون أو لا نكون ! فلا يعقل أن يترك لى أجدادى الرعامسة العظام إمبراطورية بهذه القوة والاتساع والجبروت .. كى تنهار فى عهدى تحت

سنابل وحوافر هذه الشراذم ! سأخوض الحرب حتى لو غرقت أنا نفسى فى قاع البحيرة الخضراء !فخير لى أن أموت جنديا شهيدا من أن أعيش مليكا ذليلا ! ولا يعقل أن أكون أقل وطنية وشجاعة وجرأة من سنديبس مضحك الملك الذى قال لى إنه يقوم الآن بإعداد حله حديدية مغطاة بأنصال خناجر حامية ، وعند أول إشارة للهجوم سيلقى بنفسه إلى أول تمساح سئ الحظ . سيرحب به ويبتلعه أول الأمر فهو لا يدرى ماذا سيجرى لأحشائه بعد ذلك !!

لم يبتسم كما كنت ولا رفاقه ! خرجوا منكسى الرءوس لايدرون ماذا يفعلون ؟! لم يكن كما كنت من النوع الذى تعييه الحيلة فاضطر إلى اللجوء إلى الخطوة الأخيرة التى لم يكن يتصور أنه سيتخذها فى لحظة من اللحظات ! كانت نفتيس زوجته فاتنة البلاط التى بهرت كل رجاله بما فيهم الملك نفسه ! لم يستطع أحد مواصلة الحملقة فى عينيها الواسعتين السوداوين العميقتين عمق البحيرة الخضراء ، ولا فى رقبتها التى تحاكى عنق نفرتيتى جدتها الكبرى ، ولا فى قدها المياس الذى يشبه فى انسيابه حوريات البحيرة الخضراء التى كانت تظهر عند الشروق للترحيب بالنهار ، وعند الغروب للترحيب بالليل ، ولا فى جدائلها السوداء التى كانت تتركها فى أحيان كثيرة بلا ضابط ولارابط .

كانت نفتيس تعرف مكانتها وقدرها عند الملك . كانت لها صولات وجولات معه أيام الشباب الغض منذ عشرين عاما ! وهى لاتزال تذكر همساته المبحوحة فى أذنها الرقيقة الدقيقة :

ـ إن براميل خمر مريوط كلها لا تساوى قطرة من خمر شفتيك ! ولولا زواجها المبكر من كما كنت ، ربما كانت الآن الملكة الرسمية والفعلية للبلاد بدلا من الملكة التى رحلت أخيرا عن العالم دون أن تترك أية بصمة لها على الحياة ، ومع ذلك ضاعف رحيلها من اكتئاب الملك ! ويبدو أن الملك قد زهد تماما فلم يحاول أن يرد ابتساماتها الملحة بمجرد ابتسامة عابرة ، خاصة وأن الأيام قد عجزت عن طبع بصماتها سواء على وجهها الساحر أو جسدها الجميل ، فى حين بدا الملك وقد تقدم فى السن ربع قرن .

بدا الأمر فى نظر نفتيس وكأنه تحد لجمالها الأسمر الساخن المتفجر ، لكنها لم تشأ أن تمارس سطوتها على الملك حتى لايقول أحد بأنها عادت لانتهاز الفرص بعد رحيل الملكة . وظلت على قلقها وضيقها إلى أن طلب منها زوجها القيام بمهمة وطنية تتمثل فى إقناع الملك بعدم شن الحرب التى لابد أن تؤدى إلى كارثة محتمة . عندئذ شعرت بأنه جاء اليوم الذى أصبح فيه جمالها وسحرها أسلحة لإنقاذ البلاد من الخراب والدمار ، فغمرها الفخر والحماس ووعدت زوجها كما كنت بإنجاز المهمة على خير وجه . كانت واثقة أن سحرها أشد فتكا من سحر تماسيح الآسيويين القابعة عند الضفة الشرقية للبحيرة الخضراء !

لكن يبدو أن أسلحتها هى الأخرى قد فقدت بريقها وحدتها . ففى بقائها مع الملك أخرجت كل ما فى جعبتها من ألعاب سحرية حتى تعرت فى النهاية وهى مسترخية على الأريكة الذهبية القريبة من مقعده . لكن جسدها الأسمر الجميل لم يحظ ولو بنظرة عابرة من المليك ، عندئذ لم تتمالك نفسها وهى تقول فى غضب ممزوج بمرارة المهانة :

ــ هل لايزال سنديبس يوشى بنا عندك ! يبدو أنه تخلى نهائيا عن مهمة الإضحاك إلى الدس والوقيعة ! من هو حتى يشجع جلالتك على خوض حرب هى بمثابة كارثة لن تخرج منها البلاد ؟!

نهض رمسيس وأمسك برداء نفتيس الفضى ملقيا به على جسدها العارى فانتفضت واقفة كقطة متنمرة وهى تسمع كلماته كأنها حراب مسمومة فى صدرها الناهد البض :

ــ قرار الحرب مسئوليتى أنا .. أولا وأخيرا .. وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد المصيرى ويصبح القرار قدرا لافكاك منه .. فإن كل الآراء تستوى عندى .. سواء رأى زوجك كما كنت أو رأى سنديبس مضحك الملك !

قالها واستدار ليسير ويخرج من القاعة المرمرية الذهبية دون نظرة واحدة ، فسقطت نفتيس على حافة الأريكة لتبكى ذلها ومهانتها ! وهى التى لم تعرف البكاء والذل فى حياتها ! لعنت نفسها وزوجها ومليكها ، وعجزت عن تصور مجرى حياتها بعد ما جرى لها ! ومع حلول الليل تجرعت قطرات من سم زعاف وضعت به حدا لحياتها التى عاشتها بإرادتها التى لم تسمح لأحد بأن ينتزعها منها ،

وكان قرارها بأن تنهيها بإرادتها أيضا ، اذ يكفيها أن تتجرع كأس الذل مرة واحدة فى حياتها .

أما على الضفة الشرقية للبحيرة فكانت نشوة القبائل الآسيوية لا توصف ! أصبحت مصر قاب قوسين أو أدنى وأوشك الحلم الأثير على أن يتحقق ! مصر الخير والنماء ، الخبز الشهى والجعة اللذيذة ، فتيات الحور وماء النيل ، الشمس المشرقة والنسيم العليل ، أم الدنيا وقلبها ، من أمسكها أمسك الدنيا بأسرها ! شعبها رقيق ومهذب ، لن يصمد فى مواجهة خشونة القبائل وقسوتها . قال الزعيم الآسيوى ذات مساء وهو يحتسى قدرا من الجعة ويداعب نهدى فتاة صغيرة متكئة إلى جواره وسط المشاعل التى تصاعدت بنيرانها ودخانها :

ــ سيكون غزونا لمصر نزهة العمر . . لا أعرف كيف ساد المصريون العالم فى الأجيال الماضية وهم بهذا الضعف والخنوع ؟! إن جنودهم لا يعرفون سوى اللهو والنوم والطعام والكسل . . عيوننا ترصدهم دائما فلا ترى عندهم سوى هذا . . وما دام الأمر هكذا فقد قررت أن أمنحكم وقتا أطول كى تغترفوا من مباهج الشراب والطعام والنساء . . بعد حروبكم الطويلة التى أخضعتم فيها كل القبائل والممالك التى ألقى بها حظها التعس فى طريق زحفنا نحو مصر . . من حقكم الراحة والمتعة كما من واجبكم الحرب والغزو . . فلتستريحوا ما شاءت لكم الراحة حتى تستعيدوا قوتكم وقدرتكم الكاملة على الغزو الذى يشق صفوف الأعداء كما تشق السكين الزبد .. فستحاربون قوما من الغفلة لدرجة أن أحد عيوننا استطاع أن يسرق من أحد سحرتهم التعويذة السحرية التى أحال بها ساحرنا تماسيح البحيرة السبعة إلى فكاك حامية الوطيس وقادرة على ابتلاع كل من يحاول العبور !

رقص الهمج رقصات مسعورة وهم يعوون كالذئاب فرحا بكلمات زعيمهم التى فاقت فى تأثيرها نشوة قدور الخمور التى يتجرعونها بلا حساب ، ونزوة الجنس التى غرق فيها الجميع حتى أنوفهم ! لكن عيونهم كانت ترنو من حين لآخر عبر البحيرة الخضراء إلى الضفة الغربية برغم الظلام الدامس الذى جثم على التلال والوهاد والأشجار والنخيل فلم يبد لوجه مصر أيه ملامح ، أو لجسدها أية حركات تنم عن حياة متوثبة !

أمـا أونـامون فقد بلغ فينيقيا عن طريق وعر مهجور حتى لا ترصده عيون القبـائل الآسيوية . كانت مهمة شبه مستحيلة من البداية . ولم يكن رجال الحاشية فى بـلاط أمير بيبلوس بأقل سوءا من حاشية رمسيس الحادى عشر فى مصر ! لم يحترموا وضعه كسفير فوق العادة لمصر وممثل شخصى للملك بعد أن قدم تمثال آمون المقـدس هدية للأمير الذى لم تكن لديه قدرة رمسيس على مقاومة ضغـوط الحاشية . وفـى الحـال بدأت المؤامرات تحاك فى بلاط الأمير ضد إتمام صفقـة الأخشـاب اللازمـة للأسـطول المصرى ، تارة بحجة أن الإمبراطورية المصرية تتداعى ولم تعد لهـا الهيبـة التـى تغرى بعقـد الصفقات معها ، لأنها ستكون صفقات خاسرة بكل المقاييس ، وتـارة أخـرى بالحصول على غنم مادى رهيب لإتمام الصفقة فإذا عجزت مصر عن الوفـاء بالسـداد فليعد سفيرها إليها خافض الوفاض كى يصبح سفيرا تحت العادة !

لكن الأمير رجح رأى فريق ثالث من حاشيته اقترح عليه معرفة كل أسـرار مصـر وثغرات الضعف التى أدت بها إلى الوضع الضعيف الذى تعانى منه الآن ، لعل الأمـير يستطيع أن ينفذ من إحدى هذه الثغرات ويتحكم بعد ذلك فى زمام الأمـور المصريـة بطريقـة أو بـأخرى . فهـذه هـى الصفقـة الحقيقيـة الرابحـة ، الصفقـة التـى تعقـد مـع الضعيف المحتاج فلا يستطيع أن يرفض لأنه لا يملك رفاهية الرفض !

نفذ الأمير خطة حاشيته فأرسل إلى أونامون فى غرفته جارية مصرية فاتنة ، تجيـد الرقص والغناء واللعب بعقول الرجال واستخراج ما فيها من أسرار لم تر ضـوء النهار بعد . ويفاجأ أونامون بالفاتنة الساحرة التى هلت عليه لتطرد ملل الانتظار . فلم تكن الصفقة قد تمت بعد ولم يتصـور أونـامون أن يعـود إلى مليكـه خـاوى الوفـاض وهـو الذى عقدت مصر على كتفيه أمل إنقاذهـا مـن المحنـة الوشـيكة . لـم يجـد أونـامون غضاضة فى أن يجارى الأمير حتى النهاية فرحب بالجاريـة خاصـة بعـد أن اكتـشف أنهـا مصرية أهداها كماكنت للأمير كى يكسب عنده ثقلا خـاصا !

لاحظـت عين أونامون النـافذة مسـحة الحـزن الرقيقـة التى كـانت تغلـف جمـال الجارية فسألها :

ــ كيف لفتاة جميلة مثلك أن تكون حزينـة بهـذا الشـكل ؟! هـل الحـزن الممـتزج بالجمال والسحر سلاح لا يستطيع أعتى الرجال مقاومته ؟!

ــ لاتظن ياسيدى أننى سعيدة باللعب بعقول الرجال فى مقابل لعبهم بجسدى !

نهض أونامون ليربت على شعرها ويجلسها إلى جواره :
ـ لا أريدك أن تجهدى نفسك فى الرقص والغناء ؟!
ـ هذه هى وظيفتى !
ـ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟!
ـ قصتى هى قصة كل جارية تباع وتشترى دون أن تسأل لماذا ؟ وكيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟!
أعجب أونامون بذكائها اللماح فسألها :
ـ أتحنين لمصر ؟!
خرج صوتها مبحوحا دون أن تدرى :
ـ يكاد الحنين يقتلنى إليها !!
ـ ماذا لو رجوت الأمير أن يعيدك معى ؟!
ـ لا تتعب نفسك . . فالأمير لا يفرط فى جواريه .. فهو ليس فى حاجة إلى المال كى يبيعهن !!
ـ بحكم أنك تجيدين فن اللعب بعقول الرجال .. وتعشقين مصر فى نفس الوقت .. فهل لى أن أعرف السبب فى كل العقبات التى تعوق إتمام صفقة الأخشاب لبناء الأسطول المصرى ؟!
نفرت منه الجارية وقد ابتعدت عنه بوصات :
ـ لاتحاول أن تستقى منى أية معلومات . . فرجال البلاط هنا لا يعرفون الرحمة !
ـ إذا كنت جارية الأمير فلا خوف عليك منهم !
ـ أحيانا أشعر أنهم أقوى وأخطر منه !
ـ هل لهم علاقة بوزير البلاط كماكنت فى مصر ؟!
ـ لا تحاول أن تستدرجنى فى الكلام أكثر من هذا .. وإلا غادرت المكان فورا ! فإذا كنت قد فقدت حريتى فلست على استعداد أن أفقد حياتى !
ـ وأنا لا أحب ان أتسبب لك فى أى أذى !!

ثم فتح زجاجة نبيذ إلى جواره وصب منها فى كأس قدمها للجارية التى لم تمانع :

ـ لابد أن نبيذ مريوط أوحشك كثيرا . . هيا نشرب ونمرح ونلقى بأحاديث السياسة المملة الكريهة جانبا !

ابتسمت وهى تراه يصب لنفسه كأسا شربها فشربت هى بدورها بسعادة افترشت ملامحها الدقيقة قائلة :

ـ فعلا .. نبيذ مريوط لايعادله نبيذ آخر فى أى مكان فى العالم !!

ـ أحضرت معى عددا ضخما من براميل النبيذ هدايا للأمير والحاشية كلها ! ومع ذلك لم يساعدنى أحد منهم فى إتمام المهمة التى أتيت من أجلها ؟!

ـ لايرى معظمهم سوى مصلحته الشخصية وكفى !!

ملأ كأسها مرة أخرى :

ـ كنت أتصور أننى سأتم الصفقة فى وقت قصير .. ثم أعود إلى مصر التى فى أشد الحاجة إلى الأخشاب وأيضا إلى الأيام والساعات المهدرة فى مواجهة عدو قد يشرع فى الغزو فى أية لحظة !!

ـ ها قد عدنا إلى حديث السياسة مرة أخرى !!

سعد بشربها الكأس حتى الثمالة فملأها لها مرة أخرى :

ـ أنا لا أتكلم فى السياسة .. وإنما فى مجرد صفقة تجارية لشراء بعض الأخشاب . مثل مئات الصفقات التى تعقد كل يوم !! وهى صفقة كما تعلمين تمثل مسألة حياة أو موت لوطنك مصر !

ترقرقت الدموع فى وميض عينيها الأسود :

ـ كم أود أن أعود إليها !! فأنا أحب لها الحرية التى لم أستطع الحصول عليها لنفسى !

ـ هذا الشعور النبيل لا يتأتى حتى لبعض الأحرار !

وضعت الكأس جانبا :

ـ هل تعدنى بكتمان ما سأقوله لك ؟! فكل رجل هنا فى البلاط يستخدمنى ضد الآخر .. ولذلك فالكل هنا خادعون ومخدوعون !

ـ وعلى ذلك فأنت محط أسرارهم جميعا !

ـ لكن الموت جزاء إفشاء أى سر من هذه الأسرار !
ـ وإذا كان فى هذا السر الحياة أو الموت لمصر !!
ـ فقدت حريتى وها أنذا أفقد حياتى !
ـ أعدك بالمحافظة على حياتك كأنها حياتى تماما .. فأنا سفير هنا فوق العادة ولى كلمتى المسموعة عند الأمير !! كما أننى لن أبوح باسمك أبدا !! فالمفروض أن تكون لى مصادرى السرية !!
ـ عموما فأنا لست حريصة على حياة العبودية !
ـ يبدو أن آمون قد أرسلك إلى هنا لإنقاذ مصر ؟!
ـ هل أصبحت بكل هذه الأهمية هكذا فجأة ؟!
ـ لا أحد يستطيع أن يحدد مقاصد الآلهة !
ـ ستطير رءوس كثيرة لو خرجت هذه الأسرار للنور !
ضحك أونامون وهو يربت على يدها فى حنان :
ـ وتقولين إنك لست مهمة ؟! ستدخلين التاريخ من أوسع أبوابه إذا كشفت عن خونة الوطن الذين يستحقون الموت !
انهمكت فى الحديث دون تحفظات وإن كانت قد التزمت الهمس ونظراتها من حين لآخر على الباب :
ـ كنت إحدى جوارى كماكنت .. بل كنت الجارية المفضلة والمدللة عنده .. وعندما لاحظت زوجته نفتيس ذكائى وجمالى أصابتها الغيرة وأقسمت على طردى من القصر برغم ذهول زوجها الذى فوجئ بل صدم بغيرة معبودة الحاشية كلها من مجرد جارية .. لكنه لم يشأ فى خوض مشكلات هو فى غنى عنها .. ومع ذلك لم يحب أن يخسرنى بعد أن علمنى التجسس على رجال الحاشية ونقل أخبارهم إليه أولا بأول . وهداه دهاؤه إلى إهدائى لأمير بيبلوس حتى أكون عينا له على البلاط هنا .. ونظرا لأنه لاتوجد سلعة أكثر رواجا من جمال الأنثى فقد رحب الكل بى هنا .. خاصة لسمرتى التى تثير الدفء بل والسخونة وسط طوابير الشقراوات .. وكان من حين لآخر يرسل إلىّ من يعود بالأخبار التى أجمعها بحرص وكتمان شديدين .. ومع تزايد اطمئنانه لى بدأت أخوض فى بحار من الأسرار التى يشيب لها الأطفال ..

عرفت أن كماكنت عميل لزعماء القبائل الآسيوية المتربصة بمصر .. ويشاركه فى خيانته بعض رجال البلاط هنا .. الذين يريدون التخلص من الأمير تماما كما يريد كماكنت التخلص من الملك رمسيس بمساعدة زعماء القبائل الآسيوية الذين وعدوهم بتنصيبهم ملوكا بعد غزو مصر وفينيقيا وإقامة إمبراطوريتهم التى تمتد من سومر إلى مصر !

صمتت لتلتقط أنفاسها اللاهثة وتدقق فى كلماتها الهامسة وقد تحول أونامون إلى كتلة متجمدة من الذهول : إن هذه الفتاة صادقة فى كل ما تقوله .. لقد أحالت كل شكوكه وظنونه وهواجسه إلى حقائق مادية ملموسة لاحظها لكنه لم يدرك دلالتها الحقيقية إلا الآن ! استأنفت الفتاة الجميلة فيضان أسرارها وكأنها تريد أن تتخلص من عبء يثقل كاهلها :

ــ وآخر رسول لكماكنت وصل قبل قدومك بيومين . . ونجح فى إقناع رجال الحاشية بعمل المستحيل لإيقاف صفقة الأخشاب !

ــ وهل تعرفين اسم هذا الرسول ؟!

ــ لابد أنك تعرفه ؟! إنه الساحر كابى الذى أعطى الآسيويين تعويذة تماسيح البحيرة الخضراء !

كان نسيج المؤامرة الرهيبة يتشكل ببساطة مذهلة أمام أوناسون الذى علق دون تفكير :

ــ القانون يرغم هؤلاء الخونة على الانتحار .. أما الذين يثبت عليهم أنهم كانوا يعلمون بها ولم يبلغوا عنها فيحكم عليهم بجدع أنوفهم وقطع آذانهم !

شهقت الجارية دون خوف حقيقى :

ــ أفضل الموت على جدع أنفى وقطع أذنى !!

ــ لكنك أبلغت الآن ولم تتسترى عليهم !

ثم نهض فجأة وهو يربت على وجنتها :

ــ أعدك بالعودة معى إلى مصر .. والعودة أيضا إلى حياة الحرية .. وأنا أعنى ما أقول .. إذا كنت تثقين فى كلماتى !

نهضت بدورها لتقبل يده لكنه سحبها مع كلماتها الهامسة :

ــ وأنا كلى ثقة فيك !

وهرع ليطلب لقاء الأمير على انفراد ، وليدلى أمامه بكلمات لم ينمقها وإن كان موفقا فيها كبداية للبركان الذى سيكشف الغطاء عن حممه بعد لحظات . قال :

ـ انتظرت يامولاى طويلا على أمل إتمام صفقة الأخشاب .. لكن يبدو أن سموكم نظر إلينا كمتسولين بؤساء وليس كحلفاء أصدقاء .. ولذلك قررت العودة إلى مصر دون إتمام الصفقة التى لم تكن السبب الرئيسى فى قدومى إلى هنا !!

ـ ولماذا لم تفصح عنه منذ البداية ؟!

ـ أردت أن أنتهى من الموضوع التافه أولا .. كان ظنى أنه لن يأخذ من وقت سموكم سوى لحظات لنلتفت للموضوع الأخطر !!

ـ اترك لى تحديد مدى خطورته !

لم يحتمل أونامون غرور الأمير فانطلق كالسيل الجارف :

ـ لقد كلفنى مولاى الملك رمسيس الحادى عشر بإبلاغ سموكم بمؤامرة تحاك ضدكم من داخل بلاطكم .. وهى مؤامرة ضالع فيها كماكنت وزير البلاط عندنا .. وقد تمت محاكمته وصدر الحكم بإرغامه على الإنتحار جزاء خيانته .. وكلفنى مولاى بأن أسرع إلى سموكم حتى تتداركوا الأمور قبل أن تتفاقم !

حاول الأمير التظاهر بالثبات فتساءل بلا مبالاة :

ـ وما علاقة وزير بلاطكم ببلاطنا ؟!

أعاد أونامون على أسماع الأمير أقوال الجارية واعترافاتها ، وأصابع الأمير تتقلص على مقبض مقعده الذهبى حتى انتهى أونامون من إطلاق سهامه وحرابه الدامية ، فانتفض واقفا :

ـ سأبدأ تحرياتى من الآن .. ولن تغادر بيبلوس قبل أن انتهى منها !

كان أونامون على وشك أن يسأل عن سبب حبسه هكذا حتى يطمئن قلبه ، لكن الأمير كان قد أنهى المقابلة وغادر القاعة .

قضى أونامون يومين من أصعب أيام حياته الزاخرة بالشكوك والهواجس التى بلغت به حد التساؤل :

ـ ماذا لو ثبت عدم صحة كل ما قالته الجارية .. وألصقه بمولاه الملك رمسيس ؟! هل يمكن أن تؤدى مناورته هذه إلى نتائج أبشع مما هو عليه الحال فى مصر الآن ؟!

لكن سرعان ما جاءت الأنباء لتنقشع أمامها كل هذه الشكوك والهواجس ، ويتم القبض على المتآمرين ويقدمون للمحاكمة . ويأمر الأمير بشحن الأخشاب اللازمة إلى مصر كهدية منه لجلالة الملك رمسيس الحادى عشر مع تمنياته بنصر مؤزر ، وعتقه للجارية التى اصطحبها أونامون معه إلى مصر .

وبمجرد قدوم الأخشاب إلى مصر يبدأ العمل ليل نهار ! فى الليل على أضواء المشاعل وفى النهار تحت سياط الشمس المحرقة حتى تم إعداد الأسطول وفى مقدمته مركب آمون المقدس : أوزير ـــ هات ـــ آمون ، فى حين كان كماكنت تحت الحراسة المشددة طبقا لأوامر الملك التى حيرت أونامون الذى توقع أن يقضى عليه فورا بعد اكتشاف خيانته العظمى . بل إن حيرة أونامون تحولت إلى ذهول عندما أعلن الملك أن رأى كماكنت الذى ينادى بتجنب الحرب رأى سديد للغاية . ونظرا لأنهم لا قبل لهم بالحرب فقد أمر بإرسال كماكنت رسولا من عنده إلى زعيم القبائل الآسيوية لترضيته والبحث فى بدء المفاوضات لعقد معاهدة صلح . وبالفعل تم إرسال كماكنت الذى كان فخورا بانتصاره على أونامون ، فدار حول ضفاف البحيرة حتى بلغ مقر الزعيم الآسيوى وسط ذهول المصريين وتذمرهم بل وشكهم فى قوى ملكهم العقلية ، إذ كيف يعقل أن يطلب الصلح بهذا الشكل الذليل المهين بعد أن أصبح الجيش والأسطول على أهبة الاستعداد لتحرير البلاد ؟!

وجن جنون أونامون الذى أوشك على الصراخ فى وجه كل من يقابله معلنا خيانة كماكنت العظمى ، وأن الملك على علم بهذه الخيانة ومع ذلك تصرف بهذا الشكل المجنون ! لكن سرعان ما يذهب الملك إلى معبد آمون طالبا من كبير الكهنة هيروتور أن يصلى لآمون من أجل النصر . وفى مشهد مهيب يقدم الملك رمسيس الحادى عشر القرابين التى تلح فى طلب النصر .

لكن الناس يعودون إلى منازلهم وقد غلبهم الذهول من تصرفات الملك المتناقضة . ذات يوم يرسل له سفيرا كى يطلب الصلح مع الأعداء ، وفى اليوم التالى يؤدى

الصلاة ويقدم القرابين راجيا النصر ، لدرجة أن البعض سخر من هذه التناقضات قائلا :

ـ لعله يطلب النصر لأعدائه !

حتى سنديبس مضحك الملك لم يستطع أن يمنع نفسه من التعليق الساخر حين قال :

ـ إن كماكنت ورفاقه يعيشون على الهزيمة والعار كما يعيش الذباب على القاذورات .. وهكذا وقع كماكنت على زعيم القبائل الآسيوية !

لكن فى اليوم التالى مباشرة يفاجأ الأصدقاء والأعداء بسفينة آمون المقدسة تشق عباب البحيرة وخلفها قطع الأسطول المصرى شامخة وسط طبول الحرب وأبواقها الصادحة . وإذ بالتماسيح تقفل أفكاكها المفتوحة وتتساقط جثثا هامدة فى قاع البحيرة . وتتقدم السفن وخلفها الجنود عائمين ، وتعقد الدهشة الذاهلة عيون قادة القبائل الآسيوية الذين يدركون الخدعة فينهالون على كماكنت بالسيوف والخناجر لشفاء غليلهم ، ثم ينطلقون كالكلاب المسعورة للاشتباك مع الجيش المصرى لكن بعد فوات الأوان .

ويتم النصر بطرد المعتدى واندحاره . وتقام الأفراح ومواكب النصر ومهرجاناته فى كل أنحاء البلاد . ويتقدم رمسيس الحادى عشر فى موكب جليل مهيب إلى معبد آمون ليقف أمام قدس الأقداس ويقدم قرابين الشكر ويحرق بخور الحمد لآمون الذى أمدهم بالعون وفتح بصائرهم حتى عرفوا موقع أقدام النصر وأدركوا أن السحر قوة كامنة فى البشر عليهم أن يكتشفوها بأنفسهم وليس مجرد تعويذة قد تصيب وقد تخيب .

بين طيات البخور وقف الملك رمسيس الحادى عشر على المنبر المرمرى ذى القوائم الذهبية ليجلجل صوته فى آذان الحاضرين الخاشعين وبين جنبات الأعمدة والجدران الرخامية التى تحيط بالمعبد الكبير :

ـ وإذا كنا قد قدمنا صلاة الشكر لآمون الذى آزرنا بالنور والحكمة ، بالصبر والقوة ، بالإيمان والثقة .. فإننى أود أن أقول فى هذه المناسبة التاريخية التى ستخطها كتب التاريخ بكلمات من نور ونار إن هذه الحرب فرضت علينا ، فكان لابد أن

ندافع عن كرامتنا وشرفنا ومستقبلنا حتى لو متنا من أجل هذه القيم التى عاشت مصر من أجلها قرونا متعاقبة . لم تكن حربا من أجل القهر والعدوان ولكن من أجل إعادة الحياة الجميلة الحرة إلى مجاريها الطبيعية التى تتدفق بين أرجاء بلادنا الحبيبة ، كما يتدفق نهر النيل العظيم حاملا الخير والنماء إلى كل بقاعها ، فكانت حربنا من أجل السلام الحقيقى القائم على العدل والقوة ، ومن أجل المستقبل الذى لا يمكن أن تشرق شمسه فى ظل التهديد والعدوان . فقد كان طريق مصر وسيظل دائما : طريق السلام والبناء والرخاء والخير وكرامة الإنسان فى كل زمان ومكان .

وخرج موكب النصر من معبد آمون ليتلقى الورد والرياحين من الأيدى التى امتدت بكل الإجلال ، ونظرات الحب المتدفق من العيون السوداء الواسعة المتألقة بوميض الشمس المصرية .

قصص المجموعة

مؤلفات

محمد السباعى

١ ـ ١٠٠ قصة
٢ ـ الصور
٣ ـ السمر
٤ ـ الأبطال
٥ ـ عمر الخيام
٦ ـ الخادمة
٧ ـ كوريولانس
٨ ـ تأدية الواجب
٩ ـ قصة المدينتين
١٠ ـ يوليوس قيصر

رقم الإيداع ٣١٥٦ / ٩٤
الترقيم الدولى 6 - 08.504 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه